

المكان في الرواية السعودية المعاصرة خلال القرن الأخير
(١٩٧٥-٢٠٠٠م)

٤٥
٧
٢١
علي
مفاتيح
عدد

إعداد
بندر بن مبارك السناني

المشرف
الدكتور إبراهيم خليل

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
اللغة العربية

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

تشرين الثاني، ٢٠٠٥م

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع..... التاريخ...١٠/١١/٠٥

قائمة المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	قرار لجنة المناقشة
ج	قائمة المحتويات
هـ	الملخص بلغة الرسالة
١	المقدمة
٧	التمهيد
٧	- بين القصة والرواية
١٢	- الرواية في المملكة العربية السعودية
٢١	الفصل الأول
٢٤	- مصطلح المكان
٢٦	- الزمكانية
٢٩	- المكان الروائي
٣٣	- المكان في الرواية السعودية
٣٦	الفصل الثاني
	- أولاً : الأماكن المفتوحة
٣٩	- الصحراء
٥٠	- البحر
٥٩	- المدينة
٦٨	- ثنائية القرية والمدينة
٧١	- الأماكن المقدسة بين القبول والرفض

الصفحة	الموضوع
- ثانياً : الأماكن المغلقة -	
٧٦	- البيت
٧٨	- السجن
٨٢	- المقهى
٨٥	- القصر
٨٦	الفصل الثالث
٨٧	- السرد
٨٩	- وضعية السارد
٩٩	- اللغة في تنوع المكان
١٠٢	- مفهوم السرد
١٠٥	الخاتمة
١٠٦	ثبت المصادر والمراجع
١١١	ملخص باللغة الأخرى

المكان في الرواية السعودية المعاصرة خلال ربع القرن الأخير

[١٩٧٥ - ٢٠٠٠م]

إعداد

بندر بن مبارك السناني

المشرف

الدكتور / إبراهيم خليل

ملخص

يعد المكان من أهم العناصر التي يتكون منها العمل الأدبي والفني وأدقها بما يحمله من قدرة تأثيرية وتعبيرية وتصويرية للمشهد العام ، وبمعنى آخر فالمكان له قدرة على التعبير حتى بصمته فهو الخلفية الناطقة الصامتة للمشهد الروائي، وهو العنصر الفعال الذي لا يقل أهمية عن أبطال الرواية أنفسهم وهذا ما جعلني أتعبه في الرواية السعودية، لأن المكان من أيسر السبل التي يمكن للقارئ أن ينتقل عبره في الرواية دون أن يراه .

لقد كانت رحلتنا التي جينا فيها المشهد الروائي بالمملكة العربية السعودية منذ تاريخ بدايتها الأولى - جيل الرواد - منذ عبد القدوس الأنصاري صاحب أول رواية سعودية ، ومروراً بجيل إبراهيم الناصر، ومحمد علي مغربي ، وأحمد السباعي ، وعبد العزيز مشري ، ورجاء عالم وتركي الحمد ، وعبد خال. مسلطين الضوء على الأسباب التي ساعدت على تطور الرواية في المملكة من عصر النهضة إلى يومنا هذا. ولما كان المكان الذي يستوعب الأحداث الروائية ويؤطرها عنصراً فاعلاً في عملية القص الروائي ، ولما له من شعبية تظهر جلية في الأعمال الناضجة ، اعتنت الدراسات النقدية الحديثة المهمة بتحليل عناصر الخطاب السردية بالمكان باعتباره ملفوظاً حكاينياً قائم الذات ، وعنصراً من العناصر المكونة للنص السردية . فكان الحديث ، وفي فصل كامل ، عن مكونات الفضاء للمشهد السعودي التي تعد علامة تميزه من غيره ، فكان الحديث عن المكان المفتوح "الصحراء" التي افتتن بها الروائي السعودي وتأملها جيداً حتى غدت السمة التي تميز الأعمال الصادرة في السعودية ، منذ بدايتها وحتى

العصر الحديث. "والبحر" الذي يعد الفضاء الذي يرفع من جماليات الرواية ويزينها ، فالإنسان السعودي متعلق بالبحر ، تعلق الطفل بأمه من حيث حبه له والشوق إليه ، والحاجة إلى خيراته العديدة ، فعندما نتحدث الرواية عن البحر نتحدث عن نفس إنسانه وتقلبات مزاجه وهواه وغدره وعطائه فهي جدلية الموت والحياة . و"المدينة" حيث الإنسان الذي يحاول الوصول إلى ما يريده بكل السبل ، ففيها الغدر ، وهضم الحقوق، والتلاعب بعواطف القادمين إليها من القرية ، ممن تأكلهم المدينة كقرايين قدمت لإرضاء المدينة التي تزمرج فيها رياح اغتصاب الحريات ، ومن ذلك السجن الذي زخرت به غالبية أعمال عبد الرحمن منيف ، وتركى الحمد ، وبعض أعمال غالب حمزة أبو الفرج ، كما كان الحديث عن المكان المغلق الخاص ، "كالقصر" حيث النعم التي يتمتع بها ذوو الجاه والسلطان ، "والمقهى" الذي يعد المنبر الذي تجتمع فيه أنماط البشر عمالاً وموظفين وسياسيين ، "والبيت" حيث : مرابع الطفولة والصباب من المهد ، والغرفة والبيت الحاوي لكل تلك الآثار التي حفرت عميقاً في ذاكرة كل إنسان.

في نهاية المطاف وجدنا أن البيئة السعودية بيئة خصبة تعين إنسانها المبدع في تحريك أدواته ليستقي منها الفن والإبداع ، فالمكان السعودي جدير بالاهتمام العربي عامة والاهتمام السعودي خاصة.

وقد كانت من أهداف هذه الدراسة البحث عن أفق التحول والتوتر في التعامل مع المكان باعتباره فضاءً للحدث الروائي ، وانطلقت من توفير مادة فنية اجتماعية ونفسية عن التطور والتنوع والمفارقات التي لحقت بالمجتمع السعودي خلال الفترة المعاصرة ، بالإضافة إلى التنوع الذي حققته أساليب السرد في الرواية السعودية ، من حيث علاقة الوصف والسرد والوقفة وغيرها بالمكان من جانب التشكيل الفني .

المقدمة:

الحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، القائل في محكم تنزيله (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا يُخْرَجُ مِنْهُ خَبَأٌ مُتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ^(١).

يعد الإنسان الكائن الوحيد الذي استطاع أن يخترق الهوة الفاصلة بينه وبين الكائنات الأخرى ، بما لديه من قوة تخيلية وذاكرة ، وإدراك ما حوله ، مميزات تخول له الاستمتاع بأسرار الحياة ، وجمالها ، لاسيما في الأعمال الفنية على اختلاف أنواعها ، ولأن المكان يعد من الأنماط الجمالية الظاهرة ، حفز النقاد ، لاستكناه خباياه والغوص في مجاهله وتقصيه ودراسته .

لقد شهدت فنون النثر الأدبي القصصي والروائي في الأدب الحديث تطورا كبيرا وتبوأ مكانة بين الأجناس الأدبية الأخرى ، غير أن هذه الفنون ما تزال موضع إشكاليات ومشكلات تتصل بمؤثرات أجنبية ، ومكونات تراثية ، على وجه الخصوص ، إشكاليات تتعلق بجذور تلك الفنون ، وأسباب نهضتها وتطورها . فمدارس النقد عندنا أسيرة لتدخلات أجنبية عليها ترضعها من ثدي فهمها وحضارتها وما تعني الأشياء لهم ولا مكان لخصوصية الهوية العربية التي باتت تزرع تحت عبء التبعية للغرب . غير أن عوامل كثيرة أسهمت في تنوع هذه الفنون وعلاقتها بالأفكار وتعبيراتها الفنية مثل التاريخ ، والاجتماع ، وكل العلوم الإنسانية الأخرى ، وثورة العلم والمعلومات ، هذا التطور الذي رافقه تطور النقد الأدبي ، والسرديات بصورة خاصة

٦٢٢٠٦٦

غير أن نقد الأعمال السردية والرواية منها خاصة ، لم تحظ من النقاد العرب بوافر حظ ، وذلك إذا ما تحدثنا عن علاقة الرواية بالمكان واهتمامها به ، كقيمة فنية لا تعنى فقط الأطر

١- القرآن الكريم : سورة الأنعام ، الآيات (٩٧/٩٨/٩٩).

الحاضنة والحاوية للأحداث فحسب ، بل يذهب المكان بعيداً ليؤثر ويتأثر بالشخص والزمان ، ويفصح عن علاقته بما حوله من أشياء. ولأن المكان يعد مدخلاً إستراتيجياً للتعامل مع النصوص السردية ، ولأنه يشكل منظومة لا يمكن الابتعاد عنها ، فالشخص ، والزمان ، مظاهر تتحرك داخل الوعاء المكاني . كما أن دراسته منفصلاً عن غيره تعد دراسة قليلة ، ونادرة ، لاسيما في المملكة العربية السعودية ، التي لم يلتفت نقادها بعد للمكان الروائي ، إلا أن دراسة من مثل مقاربة معجب العدوانى للعتبات السردية تعد فضاءً لذلك الخمول وأول الخطوات التي أولت المفهوم المكاني بعض حقه كقفزة أولى نحو دراسات آخر، كما أن بدايتها من عتبة العنوان يشي بكثير من الأمل ، لتصل إلى أعماق المعاني المكانية الروائية ، فالساحة الروائية بالمملكة العربية السعودية في أمس الحاجة لممارسات نقدية ، جادة ، تغني ساحتها غناءً جنيّ الثمر ، لاسيما بوجود أعمال روائية تنافس الرواية العالمية جودة . ومما يجدر ذكره أن فترة الثمانينيات وحتى أواخر القرن العشرين الميلادي تعد من الفترات الزمنية الثرة التي تكثف فيها النتاج الروائي تكثيفاً يوجب على النقاد لاسيما السعوديين منهم الاهتمام به ودراسته ، كما أنها كانت ميلاداً لكوكبة من الروائيين الذين خلدوا بأعمالهم بصمات واضحة في مسيرة الرواية السعودية ، والذين تنبىء أصواتهم بمستقبل واعد للحرف العربي عامة والسعودي بصفة خاصة ، فكتابة ككتابات الخال، ورجاء عالم ، والقصيبي ، وتركي الحمد ، وعبد العزيز مشري ، وأبو الفرج ، وغيرهم جديرة بالاحترام ، ثمينة بالتقويم والتقدير.

وإذا كان لكل بحث دوافع تدفع بصاحبه لاختياره وأسباب تقتضي الإبانة والشرح والتعليل ، فإن دواعي بحثنا هذا ، ليست غريبة أو خفية على القارئ ، الشيء الذي يعيننا من الوقوف عندها طويلاً ، ويكفينا من هذا التعليل ما لاحظناه من فراغ في المكتبات بالمملكة العربية والمكتبات الجامعية هناك ، لدراسة المكان ، مما يعاني منه غالبية دارسي هذا المجال. غير أنه ، ومن المؤكد ، أن هذا البحث المتواضع لن يرتق الخرق كله ولن يسدّ الثغرابجمعه ، ولن يعوض النقص لأدباء وكتاب ورواة يؤرق مضاجعهم ذلك النقص ، إلا أنه قد يكون ضوءاً خافتاً يبين ملامح الدرب ، ومع ذلك فقد يسعف الدارسين مع غيره من البحوث ذات الاهتمام المشترك ليكون رافداً يصب في معين نقد أدب الرواية بالمملكة . كما أن عمليات القراءة تبتدئ من أبسط عمليات النقد ، من التدقيق الفردي للمادة ، أو الموازنة ، أو التثمين ، وتترقى حتى تصل إلى أقصى درجات الاستقرار التام تحت مجهر الفكر الحديث. وإذا كان النقد قديمه وحديثه قد مر بعدة مراحل

، مخلفاً وراءه تراثاً نوعياً ، عبر مراحل زمنية متفاوتة ، ذات مرجعيات عدة فالخصوصية القومية ، والفكرية الأيديولوجية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والدينية ، وما أملتته ظروف التخلف والتبعية ، كل ذلك ورغبة في تجاوز هذه المآزق حدا بالنقد ليسلك سبلا متفرقة واتجاهات عدة.

وقبل أن ننتقل إلى بيان الفصول التي كونت هذا البحث ، وما تضمنه فحواها من محاور، لابد من التنويه إلى بعض الإشارات التي قد يزيل ذكرها أولاً كثيراً من الغموض والإشكالات التي قد يكتنف البحث ومن أهمها :

أولاً : عدم وجود دراسة مستقلة ومختصة بالمكان السعودي من ناقد سعودي ، أورتتنا كثيراً من التخوف لخوض غمار هذا المضمار، والذي حاولنا جلياً أن نتبيته في أهم الروايات التي عنيت بجمالية المكان ، وأولته جانباً يكاد يكون مماثلاً للرواية العربية.

ثانياً : لم نختر موضوعات الفصول اختياراً عشوائياً وإنما استوحيناها من آراء النقاد، ونحونا فيها نحواً قريباً من مصنفاتهم ، مع مراعاة روح العصر، وقد أخذنا في هذه الدراسة من مرجعيات عنيت بالمكان وتجلياته في الأعمال السردية .

ثالثاً : حاولنا — ما استطعنا — الاطلاع على المصادر والمراجع التي نحسبها مهمة تغني البحث وتشد أزره ، أما إن فاتنا الرجوع لبعضها فليس ذلك عائداً لتقصير منا وإنما لظروف فوق طاقتنا ، وقديماً قيل المعاصرة حجاب.

رابعاً : إشكالية تداخل المصطلحات ، وتماهياها مع بعضها ، مما يصعب معه فضّ مجاهلها إلا لمتمرس ندب نفسه لخدمة هذا المجال.

خامساً : ضعف التواصل الثقافي بين البلدان العربية ، وهو ضعفٌ فتك بحركة النقد العربي عموماً في زمن أصبح فيه العالم قرية صغيرة ، وهو سبب ذلك الانغلاق الخائق الذي حال بين تطور الفنون ونهضتها ، وهو الذي نجده يجثم على علاقة النقد في الوطن الواحد، الشيء الذي تحاول الأندية الثقافية في المملكة من تطبيبه ، وتضميد جرحه.

سادساً، نؤكد أن المصادر والمراجع والروايات التي أطلعنا عليها في سائر أبواب البحث، تعد أقل مما ما يمكن دراسته، حسب خطة البحث، كما أننا لم نتقيد بالزمن الذي وضعناه كفترة محددة لدراسة الروايات، فتجدنا قد أخذنا روايات قد تأخرت عليه، وما ذلك إلا بغرض التحديث والتنويع.

وقد قسمنا هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة :

أولاً: التمهيد

يحتل بالتصور الذي انطلقنا منه كفرضية للقراءة والتحليل وسعيًا وراء تواصل عناصر البحث، قديمها وحديثها، وحتى نتمكن من معرفة الظروف التي أحاطت بميلاد الرواية بالمملكة، كان لابد من القفز إلى الوراء لتمهيد هذا البحث، فكانت اللوحة التاريخية للرواية السعودية وعوامل نشأتها وتطورها والرواد الذين كانت لهم اليد الطولى، الذين وضعوا اللبنة الأولى لهذا الفن، كعبد القدوس الأنصاري، وأحمد السباعي، وإبراهيم الناصر، وغيرهم.

ثانياً : الفصل الأول

يلاحظ المتطلع لأي فن أدبي تعدد المدارس والاتجاهات النقدية التي تتكفل بتقويم كل فن، لأن النقد يعتبر ساحة للجدل الفكري، بل الأكثر تعبيراً عن صراع الأفكار. وقد جاء هذا الفصل مقدمات نظرية حول مفهوم المكان وفيها حاولنا عرض بعض النظريات التي حاولت رصد جماليات المكان وأثره في العمل الروائي.

ثالثاً : الفصل الثاني

أولاً الأمكنة المفتوحة (أنماط المكان) بما أن أي عمل فني لابد من أن يقوم على ثنائيات متقابلة جاءت هذه الجزئية من البحث، ولأن الموقف يستدعي فضاءات مكانية متعددة كانت الصحراء، التي عكست مخاوف الإنسان وأشواقه، وهواجسه، وتساؤلاتي أهميتها في الرواية العربية السعودية لما لها من عميق أثر في إنسانها، وتحديثنا فيه عن

البحر ، الذي يلقي بظلال ثقافية وبيئية على الإنسان السعودي ، الذي ينطلق الحديث عنه من مخزون عاطفي ، ونفسي خصب ، فالإنسان السعودي يعشق البحر ويخاف غدره ، تلك الجدلية التي أثرت ساحتها الأدبية كقلق استفاد منه الروائي. المدينة ، تأخذ ثنائية الريف والمدينة أشكالاً متباينة ، وتقوم العلاقة بينهما على الصراع ، فالمدينة تغدو هي الأقوى والأكثر تأثيراً ، ففي المدينة ، القمع السياسي ، والجنس الحرام ، والتحول المادي ، والطمع ، والمكر ، والخداع حيث لا قيمة للإنسان.

ثانياً : الأمكنة المغلقة تعرضنا للحديث عن البيت ، والقصر ، والفيللا ، والسجن كنماذج عن المكان المغلق ، وعلاقة الإنسان به ، ومحاولة كشف التباعد والتقارب بين تلك الأمكنة وبين ساكنيها من حيث القبول والرفض لها .

رابعاً : الفصل الثالث

لقد جال المتن الحكائي في فضاءات تعددت سماتها وتشكلت صفاتها وتباين ضيقها ورحابتها ، فالمكان له ارتباطات مع محكيات الشخص ، ورواها للحياة ، وصفاتها النفسية ، وانتماءاتها الاجتماعية ، هذا الارتباط الذي يجعل للفضاء قيمته الرمزية التي ترفعه إلى مقام الحافز الأساسي للحكي ، لذلك جاء تحت العنوان (المكان والسرود قراءة فنية) وقد اعتمدنا في تحليله على المستوي الفني ، أي تطور المستوي الذي حققته أسلوبيات السرد في الرواية السعودية من حيث علاقة الوصف والسرود والوقفه وغيرها بالمكان ، أما عن الأساس النظري الذي تتطرق منه فرضية هذا البحث فهو الاعتماد على نظريات السرد الحديثة ، التي ترى وجود روابط بين الشكل والمضمون وأن طرائق السرد تختزل عناصر العمل الروائي التقليدي ، مثل الشخص واللمغة المحكية ، والزمان والحبكة والعقدة والحل.

وفي نهاية المطاف خاتمة البحث التي تحدثنا فيها عن مجموعة من النتائج توصلنا إليها فيه وأعقبناها بثبت شامل للمصادر والمراجع والروايات التي اعتمدنا عليها في جمع مادة البحث.

وفي نهاية هذا التقديم ، ولأنّ من لا يشكر الناس لا يشكر الله ، لا يفوتني أن أتوجه بالشكر والتقدير ، لكل من مدّ لنا يد العون حتى اكتمل هذا البحث ، من أصدقائي وأساتذتي وزملائي ، وأنوه بالشكر الجزيل خاصة للأستاذ الدكتور إبراهيم خليل الذي شرفني بالإشراف على هذا البحث ، فوجدت فيه صورة الإنسان ، والأب والأخ ، قبل أن يفاجئني بعونه لي ، فما فتىء يهديني سواء السبيل حتى أتممت هذه الدراسة . والله من وراء القصد وصلى الله على سيدنا محمد نبي الإحسان.

تمهيد

- ١ -

بين القصة والرواية :

لم تكن الرواية بمعناها الفني الحالي موجودة أو معروفة في المملكة العربية السعودية وإنما كان هناك أدب القصة النثرية القديمة أو الحكاية ، وهي جنس من الأجناس الأدبية العربية وجذورها ضاربة في عمق أدبنا العربي في شكل حكاية أو أسطورة . وقد عني القرآن الكريم بفن القصة ، فقد سمي أخبار الأمم السابقة قصصاً ، كقصص الأنبياء عليهم السلام (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين)^(١) أما في أدبنا الحديث فالقصة "هي كتابة فنية يقوم بها شخص واحد ويقصد فيها إلى تصوير حالة من حالات المجتمع ، ويختلف ميدانها باختلاف ثقافة كاتبها واتجاهه وميله ، ولكنها على أي حال تصور موقفاً أو مواقف دينية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية أو غير ذلك من أحوال الحياة التي لا تحصر"^(٢) والقصة "حادثة فنية يجب أن تستشف من صميم الحياة لتسمى فناً ، ولها ثلاثة أنواع : ١. الأقصوصة : وهي تكتب في صفحة واحدة أو عدة صفحات ومهمتها معالجة أحداث صغيرة وشخصياتها بقدر ما يحتمل الحادث .

٢. القصة القصيرة : وتتكون من جزء أو فصل واحد فإذا تعددت الفصول تسمى

رواية ، وتتكون عناصرها التي تقوم عليها من (المقدمة ، العقدة ، الحل)"^(٣) وقد عرفها محمود تيمور بقوله " القصة عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته ، أو بسط لعاطفة اختلجت في صورة فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء محاولاً أن يكون أثرها في أنفسهم مثل أثرها في نفسه"^(٤) لذا فالقصة بهذا المفهوم الفني وتلك الشروط التي يجب تحققها ليحكم عليها بأنها عمل يقوم على أصول أدبية وقواعد فنية

١- سورة يوسف : الآية (٣) .

٢- أنظر : محمد بن سعد بن حسين : الأدب الحديث تاريخ ودراسات ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ط١ ، ١٩٨٣ م ، ص ١٨٩ .

٣- إبراهيم عطا محمد يوسف ، بحث في القصة ودورها في التربية الحديثة ، نشر في كتاب سلسلة اللغة العربية قضاياها ومشكلاتها كلية التربية للمعلمين ، حائل ، ط١ ، ٢٠٠٢ م ، ص ٢٥٣ .

٤- نقلا عن : فاضل فتحى والي ، بحث في القصة في المملكة العربية السعودية ، نشر في كتاب سلسلة اللغة ... ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

تعارف عليها النقاد ، قد تأخر ظهورها في الأدب السعودي حيث كانت البدايات الأولى لهذا الفن بدايات أولية ينقصها الكثير من الأصول الفنية .

٣. الرواية : أما الرواية فهي سرد كامل لكل ما تجيش به الحياة من تفاصيل فهي شمولية ترصد الواقع بكل تياراته لتبرز منه فلسفة معينة ، يقول أرنت بيكر: " هي تفسير للحياة الإنسانية من خلال سرد قصص نثري".^(١) فهي الأوسع في الأحداث والشخصيات وتشغل مكانا أكبر وزمنا أطول لذلك تأتي الرواية كبيرة الحجم . كما أن الفروق بينها والقصة القصيرة التي ذكرنا بعضها ليست محلا للاتفاق بين النقاد العرب والغربيين على حد سواء الذين تناول العديد منهم مقومات الفن الروائي ، وتفاوتوا في رؤيتهم لخصائصه ، " منهم أدوين موير EDWIN MUIR في كتابه (بناء الرواية) الذي تحدث عن أهمية الحدث والشخصيات وعلاقتها بالمكان والزمان ، وفوستر E.M.FORSTER في (أركان الرواية) الذي يرى أن الرواية تقوم على (قصة ، شخصيات ، عقدة ، خيال ، إلهام وأسلوب متناغم) ، وهنري جيمس في (فن الرواية) وروبرت ليدل في (بحث في فن الرواية) . أما برسي لوبوك PERCY LUBBOCK في (صناعة الرواية) فقال بأهمية الزمان في الرواية ، ويتحدث كثيرا عن ضمير المتكلم ، والقص الدرامي والروائي ، ويضيف أن الرواية هي عبارة عن صورة أو لوحة يظهر جمالياتها كاتبها أو راويها ، وكولين ولسن في (فن الرواية) يرى أن الرواية محاولة لخلق مرآة من المرايا يستطيع الروائي من خلالها رؤية وجهه وأنها -أي الرواية- تجربة فكرية ، ونوع من الركض الصامت من أجل التجربة الفعلية .. ويرى ولسن أن البناء في الرواية أقل أهمية من الخواص الأخرى كالخيال والحيوية"^(٢) وقد عد محمد صالح الشنطي " الاهتمام بالمكان أهم مكونات البناء الروائي فهو يري أن المكان ليس مجرد وعاء أو حقل يجري فيه الحدث بحيادية بل عنصر بنائي يدخل في صميم النسيج الفني للقص الروائي ، وقد يكون المكان شخصية رئيسية تستأثر بالإهتمام الأوفر"^(٣) ، وقد صار للمكان دور ملموس في بعض الاتجاهات الروائية الحديثة ، إذ تجعل المكان - كالقريبة أو المدينة - هو البطل في الرواية ، بعد أن كان الحدث أو الشخصية أو كلاهما معا يشكلان دورا فاعلا في تنوع المكان . والذي نستنتجه من اطلاعنا على آراء هؤلاء الكتاب أن عناصر الرواية

١- سيد حامد النساج : الرواية العربية كفن من الفنون ، مجلة الفيصل ، العدد ٢٨ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٤ .

٢- نقلا عن : سلطان سعد القحطاني ، الرواية في المملكة العربية السعودية ، مطبعة الصفحات الذهبية ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٠ / ٢١ / ٢٢ .

٣- محمد صالح الشنطي : نقد الفنون السردية وطرق تحليلها وتدريسها ، السرد في الأدب العربي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، ط١ ، ٢٠٠٢م . ص ٢٧١ / ٢٧٢ .

تتمثل في الحكاية ، والشخصيات ، والحبكة ، والإيقاع ، والخيال المبدع ، والمعالجة . وقد حاول ، محمود تيمور ، أن يوظف للرواية ويحدد أبعادها ، ويجعل لها ميزة تفرق بينها وبين القصة الطويلة والقصيرة في كتابه (دراسات في القصة القصيرة والمسرح) ، حيث يقول " وتدعى الرواية ROMAN وفيها يعالج المؤلف موضوعا كاملا أو أكثر ، زائرا بحياة تامة واحدة أو أكثر فلا يفرغ القاريء منها إلا وقد ألم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة . وميدان الرواية فسيح جدا أمام القاص يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله ، ويجلو الحوادث مهما تستغرق من وقت " (١) أما غنيمي هلال فيقول في تعريفه للقصة - وهو يريد الرواية بلا ريب - " القصة كالحياة معقدة متعددة الجوانب ، ممتدة ، حية المعالم ، وقصد المؤلف فيها إلى حكاية الفشل أو النجاح أقل من قصده إلى عرض مناظر وتحليل شخصيات ، ترمى إلى هدف واحد ، يتصل بحال الإنسان في موقف خاص ، وما يحيط به من بؤس ، وما يتوعدده من أخطار ، وينكشف هذا كله عن فكرة كبيرة هي بيان موقف إنساني يكون فيه جهد الإنسان ذا معنى " (٢) . ويلاحظ على هذا التعريف المطول " اشتماله على معظم العناصر المتصلة بفن الرواية سواء أكانت متصلة بالشكل أم بالمضمون " (٣) . وهكذا يصعب على الكتاب والنقاد الاجتماع على تعريف واحد لهذا الفن ، " لذا نجد الرواية عند طه حسين تختلف عن الرواية التي كتبها واحد ممن عرفوا بجيل الستينيات الميلادية (كصنع الله إبراهيم) أو غيره ، ونجد هذا أيضا في الأدب السعودي حيث يختلف شكل الرواية وبناءها الفني بين جيل أحمد وجيل عبدالعزيز مشري مثلا ، بل إن الرواية تختلف بين راو وآخر من أبناء الجيل الواحد ، وأبعد من ذلك نجد الاختلاف قد يوجد في أعمال كاتب واحد ، الشيء الذي جعل عبد الفتاح عثمان يقول " فالرواية جنس أدبي يتميز برحابة التجربة ، وتعدد الاتجاه ، وتنوع البناء الفني ، ومن ثم يبدو تعريفه وحصر خصائصه أمرا عسيراً يتجاوز طموح الباحث وقدرته الذاتية ، فكل رواية جديدة تجربة جديدة في حد ذاتها لها طابعها المميز ، ورؤيتها الخاصة في التقنية والأسلوب " (٤) .

١- نقلا عن : سلطان سعد القحطاني : الرواية في المملكة العربية السعودية ، مطبعة الصفحات الذهبية ، الرياض ، ١٤ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٢ .
٢- نقلا عن : السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٥م ، ص ١٨ .
٣- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية ... ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
٤- المصدر نفسه ، ص ١٨ - ١٩ .

كما أن الفروق بين القصة والرواية ليست محلاً للاتفاق بين الكتاب والنقاد في الغرب أو الشرق ، فنجد محمد يوسف نجم يسمي الرواية والقصة الطويلة باسم القصة ، والقصة القصيرة باسم أقصوصة ^(١) ، وسيد قطب يسمي الرواية قصة ، والقصة القصيرة أقصوصة ^(٢) وفي الأدب السعودي نجد بعض القصص في مجموعة (جراح البحر عام ١٩٨٢م) لمحمد عبده يماني ^(٣) لا تقل في الحجم والمواقف والشخصيات ^(٤) عن بعض روايات غالب حمزة أبي الفرج ^(٥) مثلاً .

وثمة تساؤل حول هوية الرواية العربية ، " ففتحي سلامة في (مقالته عن هوية الرواية) ^(٦) وفاروق خورشيد في كتابه (في الرواية العربية - عصر التجميع) ^(٧) يريان أن الفن الروائي ليس جديداً على الأدب العربي ، ولم يكن وليد مصادفة للأدب الغربي ، وأنه فن أصيل في الأدب العربي ، تطور مع تطور الأدب ، وتوقف مع نكساته ، وتعرض للنهب والسرقة كغيره من الفنون العربية " ، في حين يرى باحثون منهم سيد حامد النساج ^(٨) " أنها فن غربي بحث بأصوله وبقيمه الفنية ومعايير الموضوعية ، والرواية لم تظهر عند العرب بمعناها الفني إلا عندما قويت الصلة بين الشرق والغرب واطلع أدباؤنا على آثار الأدب الغربي . وتظل الإجابة عن هذا التساؤل مفتوحة على احتمالات كثيرة جداً كلما أوغلنا في الزمن ، إذ يلعب الخيال التفسيري بحرية أكبر . وكل احتمال يعزز نفسه بظواهر إنسانية تاريخية متأصلة في النفس كما يعزز نفسه بالظواهر التاريخية التي تؤيده " ^(٩) . ومن هذا الباب تباينت الآراء حول هوية الرواية هل هي ذات أصول عربية أم غربية ؟ وأحياناً تضيق الفجوة بين رأي وآخر ، والآراء كثيرة تكاد تصل لعدد النقاد ، والدارسين ، الذين دخلوا ميدان نظرية الرواية أو النظرية الأدبية ، ولا بد لنا أن

- ١- محمد يوسف نجم : فن القصة ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص ٩ / ١٠ .
- ٢- سيد قطب : كتاب النقد الأدبي ، طبعة دار الشروق ، القاهرة ، د. ط ، ١٩٨٥م ، ص ٨١ .
- ٣- محمد عبده يماني ، أديب وروائي وناقد أدبي ، ولد بمكة المكرمة ، له عدة مؤلفات في الدين والرواية والسياسة والعلوم أبرزها ، (فتاة من حائل ، وكشفت أزمة الخليج عوارتنا ...) وغيرها .
- ٤- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ... مرجع سابق ، ص ٢٠ .
- ٥- غالب حمزة أبو الفرج ، ولد في المدينة المنورة ، صدر له أكثر من ثمانية عشر عملاً قصصياً وروائياً من أبرزها ، (ألقاك غداً مجموعة قصص ، البيت الكبير ، قصص وداع أيها الحزن ...) وغيرها .
- ٦- فتحي سلامة : هوية الرواية العربية ، مجلة لفيفل ، العدد ٣٧ ، السنة الرابعة ، رجب ١٩٨٠م ، ص ٦٣ .
- ٧- فاروق خورشيد : في الرواية العربية عصر التجميع ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٠ .
- ٨- سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية الحديث ، طبعة المركز العربي ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٢٥٣ .
- ٩- حنا عبود : تاريخ الرواية ، دراسة اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٦ .

نشير إلى أن النقاد مجمعون على أن الرواية بمعناها الفني بدأت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي^(١).

ونرى أن اختلافهم يشير إلى عدم وجود وثائق معينة تحدد الأسبق ، الشيء الذي يفتح الباب واسعاً أمام الاجتهادات ، لأن المراحل الموعلة في التاريخ القديم لم تكن مراحل مؤهلة وثنائياً لتقديم الإجابة لكثرة الحروب ولاسيما الحروب الصليبية وثورات الطبيعة والحرائق التي أصابت بعض المكتبات العالمية -التتار- والذي أراه أن الرواية ذات أصول عربية ضاربة في القدم لأننا من أمة بدأ وحياها بكلمة -أقرأ- فقرأنا ولأننا ابتدنا أصل كل علم كتبنا. ورغم أننا في هذا المضمار لا يمكننا حصر المقاربات التي قدمت ، قديماً إلا أننا نود أن نلقي الضوء على بعض منها ونود هنا أن نشير إلى قصة عربية مشهورة هي قصة (حي بن يقظان) ، لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الذي ولد في واد أش في الشمال الشرقي من قرطبة ، بالأندلس في السنوات العشر الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي. والذي يعتبر الكاتب الحقيقي لهذه القصة. وهو الذي لفت أنظار العالم كله إليها وإن قصته من أعظم قصص العصور الوسطى ابتكاراً ، وقد كان لهذه القصة أثر فعال في الأدب الأوروبية عموماً بعد عصر النهضة وذلك بعد أن ترجمت إلى عدة لغات أجنبية مختلفة. كما أنه قد تكون متعة الخيال في الحكايات هي ما أخذ يعقول الناس كباراً وصغاراً في كل مكان وزمان ، وقد تكون الحكايات الخيالية للألف ليلة وليلة حيكمت بعناية من كانوا يعنون بتسلية الملوك وتهذيبهم بأسلوب يجمع بين الجد والهزل وبين الفلسفة والبساطة ، لكن خلف بسط الريح الطائرة والكنوز الأسطورية وقصص الغاريت ومغامرات علاء الدين وعلي بابا وغيرها قد توجد بدايات جيدة للإنسان العربي الذي بات يتقلب في فراش التبعية والتي أهمل بسببها حقه في الإبتكار، كما إننا نقر أحكاماً ليس أقلها قدرة على أن فن القص فن عربي قديم قدم إنسانها.

١- حنا عبود : تاريخ الرواية ، دراسة إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص٧.

الرواية في المملكة العربية السعودية :

لم تكن الرواية في الأدب العربي السعودي متخلفة عن مثيلاتها في البلدان العربية المجاورة كالعراق والسودان والمغرب على سبيل المثال ، هذا إذا تجاوزنا المستوى الفني لكل رواية^(١) ، فقد أصدر عبد القدوس الأنصاري^(٢) روايته (التوأمين) وهي أول رواية صدرت في الحجاز عام ١٩٣٠م ، "وبدت في حينه متواضعة في بنائها الفني ثم بعدها بسبع أسس الأنصاري مجلة المنهل عام ١٩٣٧م معلنا اهتمامه بفن القصة في المملكة ، وتشجيع الكتاب الناشئين ونشر أعمالهم القصصية في مجلته ، واهتمامه الشديد وإيمانه بضرورة وجود القصة لاكتمال مسيرة الأدب الحديث على أسس علمية . ولعل اهتمامه بفن القصة يعود لسببين : الأول كونها من الفنون الراقية ، والثاني خلو أدبنا من هذا النوع الأدبي الحديث " ^(٣) وبدأت الرواية في نمو مطرد وبدأ يبين لها ثمر حيث استطاعت المنهل أن تكون لها جمهوراً من المتطلعين ، الذين استطاعوا أن يهضموا ما جاء بعدها مثل روايتي (فكرة عام ١٩٤٧م) لأحمد السباعي^(٤) و (البعث عام ١٩٤٨م) لمحمد علي مغربي^(٥) . إلا أن هذه المحاولات " لم تنتج عملاً روائياً متميزاً قرابة ثلاثة عقود غير روايتي (فكرة) و (البعث) الضعيفتين في بنائهما الفني ، إلا أنه بهما أصبحت المملكة أكثر قرباً من ركب الرواية ، ولا سمياً الرواية العربية " ^(٦) ولأن المفهوم الفني لم يتبلور وقتها على أسس علمية للفن القصصي بشكل عام ، والروائي بشكل خاص . أما ما يتعلق بضعف مستوى الرواية في المملكة فيتمثل في عدة أسباب أهمها : ^(٧)

- ١- محمد صالح الشنطي : فن الرواية في الأدب العربي المعاصر ، دار الأندلس ، حائل ، ط ٢ ، ٢٠٠٣م ، ص ٣١ .
- ٢- عبد القدوس الأنصاري ، ولد بالمدينة المنورة ، أصدر مجلة المنهل ، عام ١٩٣٧م ، شاعر ، وناثر ، وأديب ، كتب أكثر من ثلاثين كتاباً ، توفي عام ١٩٨٣م .
- ٣- عبد القدوس الأنصاري : الكتاب الفضي ، مجلة المنهل ، ١٩٦٠م ، بمناسبة مرور (٢٥) سنة على تأسيسها .
- ٤- أحمد محمد السباعي ، ولد بمكة المكرمة ، صاحب أول كتاب سعودي في تعليم القراءة ، يعد السباعي رائداً من رواد الصحافة والأدب والرواية والنقد ، من أبرز أعماله (فكرة ، وخالتي كدرجان ...) وغيرها .
- ٥- محمد علي مغربي ، ولد بجدة ، أديب ، شاعر ، وصحفي كبير ، رأس تحرير جريدة صوت الحجاز ، له مؤلفات عديدة منها (أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الميلادي ، ملامح من الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر ، عمر بن الخطاب من أعلام الصحابة ...) ، أنظر موسوعة الأدباء السعوديين ، ٣/٣٠-٣٢ .
- ٦- حسن حجاب الحازمي : البطل في الرواية السعودية حتى نهاية ١٩٩١م ، نادي جازان الأدبي ، ط ١ ، ٢٠٠٠م ، ص ١١/١٠ .
- ٧- محمد صالح الشنطي : فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر ... مرجع سابق ، ص ٣١/٣٧ .

أولها : يتمثل في طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع السعودي المغلق ، ومن المعروف أن الرواية تستقي مادتها من دينامية العلاقة بين الجنسين ، ولهذا نجد أن الأعمال الروائية الأولى دارت أحداثها في بيئات خارجية وألتمس كتابها أمكنة يستطيعون أن يجعلوا منها مسرحاً للقاءات المفتوحة بين العناصر الروائية في أعمالهم .

ثانيها : القفزة الاجتماعية التي أحدثت خلخلة في المفاهيم والرؤى التي مست مواضع اجتماعية موروثية والتي حاول بعض الروائيين بالولوج فيها إلا أنهم تخطبوا مما أذهب رونق تلك الأعمال .

ثالثها : ما ذهب إليها بعض الكتاب من أن ضعف الرواية المحلية يعود إلى عدم وجود الكاتب الصبور والتمكن والمتفرغ لهذا الفن ، فهذا الفن يحتاج إلى شيء من المثابرة وطول النفس .

رابعها : تخوف بعض الكتاب السعوديين وترددهم من الإقدام على كتابة الرواية ، وقد كتبوا مقدمات اعتذارية في كتبهم ورواياتهم مثل مقدمة رواية (فتاة من حائل عام ١٩٨٠م) لمحمد عبده بمانى ، " فيشير إلى أنه عندما كتب " فتاة من حائل " لم يهدف إلى كتابة رواية ، ولا توقع أن يكتب قصة قصيرة ، وإنما كان هناك صور معينة يعرضها بتفاصيلها وأحداثها ... وكان هناك واقع أراد أن يجسده ويترجمه ففعل . ويقول أيضا : إنني لست من الكتاب المحترفين ولا ممن مارس هذا النوع من الكتابة بصورة دائمة أو منتظمة ، وإنما هي متنفس أهرب إليه كلما أحكمت ظروف العمل طوقها حولي ... " (١) ورواية (طائر بلا جناح عام ١٩٨٠م) لسليمان القحطاني (٢) الذي نقرأ في مقدمتها " الإنسان مهما بدأ قادراً مقتدراً مسيطراً على الظروف التي تحيط به ومسيطر أيضاً — من خلال تقدمه العلمي والتكنولوجي — على البيئة المادية تدور حوله أحداث هذه القصة وحول هذا المحور يتم البناء الدرامي كله .. (٣) .

١- محمد عبده بمانى : فتاة من حائل 'دار تهامة ، جدة ، ١٩٨٠م ، المقدمة .
٢- سليمان سعد القحطاني ، ولد بالرياض ، شارك في الكتابة بالصحف ، صدر له كتاب بعنوان (من روائع الشعر العربي القديم) ورواية (زائر المساء) وغيرها .
٣- سليمان سعد القحطاني : طائر بلا جناح ، للقاهرة ، ١٩٨٠ - ١٩٨١م ، المقدمة .

كل هذه الأسباب وغيرها جعلت تنخر في عظم الرواية العربية السعودية إلى أن غدت بناءً هشاً لم يصمد في وجه متطلبات التطور من جيل أضحى أكثر وعياً وثقافة أدبية وكل مطالبهم وأمانهم أن تواكب رواياتهم الحركة الثقافية الأدبية في العالمين العربي والغربي .

" بدأ يلوح في الأفق جيل بات أكثر وعياً وفهماً لأصول الرواية وقواعدها الفنية ، ذلك الجيل الذي تمخضت عن ظهوره ظروف ساعدت على إغناء الساحة الفنية والفكرية والأدبية في المملكة العربية السعودية التي شهدت تطوراً في جل النواحي ، فالحكومة السعودية حرصت ، منذ بدايتها على أن يكون التعليم من أولويات اهتمامها ، فبدأت إرسال البعثات إلى الخارج ، إلى مصر ولبنان والمغرب . ومعظم كُتاب الرواية السعودية الأوائل كانوا من رجال التعليم الذين بذلوا جل مساعيهم لإخراج المجتمع من قبضة الهيمنة التركية التي كانت تتخبط في ظلمات الجهل والفقر والمرض ، ولذلك أسس عبد القدوس الأنصاري نادياً للمعلمين ، ومركزاً للتدريب على الخطابة وفق المنهج الأدبي الحديث . ومجلة المنهل سنة ١٩٣٧م ، فكانت عوامل تغيير ، ثم جاء السباعي ليسخر قلمه وفكره لتطوير ، هذه البلاد فقد كان مدرساً ثم مديراً لمدارس عدة ، ثم تأسست وزارة المعارف سنة ١٩٥٤م ، ليصبح التعليم إلزامياً بعد أن أسست مئات المدارس ، وأنشئت الجامعات السعودية بكل فنونها وكلياتها ، وبعد أن قامت ثورة التعليم العسالي بالمملكة العربية السعودية لأول مرة عام ١٩٥٧م بإنشاء جامعة الملك سعود ثم جاء دور الصحافة التي أسهمت إسهاماً فعالاً في ظهور الأدب السعودي الحديث بصفة عامة ، وتطوره والذي أثر إيجابياً في قيام أدب القصة القصيرة " .^(١) ولايفوتنا أن نذكر بأن معظم الروائيين السعوديين كانوا صحفيين شجعوا الشباب على الكتابة في الفنون جميعاً لاسيما القصة القصيرة ، منهم حمزة بوقري ، الذي رأس تحرير مجلة الإذاعة السعودية ، وأحد رواد كتابة القصة في المملكة العربية السعودية ، وله الأسبقية في تأسيس وتطوير فن الرواية في المملكة ، كما تميز بقدرته على فهم وظيفة النص الروائي الذي يوحد بين النتاج الفكري وهموم صاحبه الحياتية . وجاء سيف الدين

١- سلطان سعد القحطاني : الرواية في المملكة العربية السعودية نشأتها وتطورها ، مطبعة الصفحات الذهبية ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ٤٣ / ٥٢ .

عاشور^(١) في قافلة الزيت ، ثم غالب حمزه أبو الفرج في جريدة المدينة . كما يمكن القول : إن غالبية الكتاب السعوديين امتهنوا الصحافة وترأسوا تحرير غالبية الصحف التي كانت تصدر آنذاك .

ثم جاءت فترة السبعينيات فظهرت وسائل الطباعة والنشر التي أسهمت أيضا في تعميم المادة المكتوبة ، وقد صدر أول عمل عن دار نشر حكومية عام ١٩٧٧م ، وهي رواية بعنوان (عذراء المنفى) لإبراهيم الناصر^(٢) ، وكانت قد طبعت بنادي الطائف الأدبي .

" كل ذلك أنتج جيلا من المثقفين الذين يحملون روح التجديد والابتكار نتيجة لما تأثروا به خلال تلك الفترة من جيل العمالقة ، أضف إلى ذلك وجودهم في الخارج في شكل بعثات أضافوا لتلك الحركة دورا بارزا أخذ في الانتشار والقبول عند الطلبة والوسط الثقافي . ويأتي دور النوادي الأدبية التي كانت الملاذ الآمن والصدر الحنون لأولئك المثقفين ، إذ وفرت المناخ الأدبي لجميع الأدباء في الوطن العربي ، ومؤتمرات تتداول فيها كل المشكلات التي تحيط بهم ، ومن تلك النوادي نادي جازان الأدبي ، ونادي حائل ، ونادي الطائف ، ونادي جدة .. وغيرها من النوادي في المملكة كما لا ننسى دور الأدباء العرب المهاجرين للمملكة بغرض العمل " .^(٣)

تلك الأسباب كلها جعلت من الإنسان السعودي قارئاً وكتاباً وناقداً حصيماً ، فبعد أن صدرت رواية (ثمن التضحية - عام ١٩٥٩م) لحامد دمنهور^(٤) وهي أول عمل روائي فني ناضج من كاتب سعودي ، جاءت رواية (تقب في رداء الليل - عام ١٩٦١م) ثم (سفينة الموتى - عام ١٩٦٩م) لإبراهيم الناصر الذي أصدر رواية (غيوم الخريف - عام ١٩٨٨م) .

١- سيف الدين عاشور ، ولد بمكة ، له اهتمام بالأدب والقصة والرواية ، شارك بالكتابة في جريدة البلاد السعودية والندوة من أعماله (لاتقل وداعا) أنظر موسوعة الأدباء السعوديين ، ٣ / ٢٣٣ .

٢- إبراهيم الناصر الحميدان ، ولد بالرياض ، صدرت له خمس روايات منها (عذراء المنفى ، غيوم الخريف ، غدير البنات ..) يعد من رواد الرواية في المملكة . أنظر موسوعة الأدباء السعوديين ، ١ / ٦٧ و٦٨ و٦٩ .

٣- سلطان القحطاني : الرواية في المملكة العربية السعودية ... ، مرجع سابق ، ص ٦١ / ٦٤ .

٤- حامد حسين دمنهوري ، ولد بمكة المكرمة ، صدرت له روايتان (ثمن التضحية ، ومرت الأيام) أنظر موسوعة الأدباء السعوديين ، ١ / ٣٦٣ و٣٦٤ . وانظر سلطان القحطاني ، الرواية في المملكة ... ، ص ٣٦ / ٣٧ .

ظهر القلم النسائي لأول مرة بعد ذلك ، فكتبت هدى الرشيد^(١) روايتها (غدا سيكون الخميس) الصادرة عام ١٩٧٩م بالقاهرة ، ثم كتبت سميرة خاشقجي^(٢) ستة أعمال ، وأمل شطا^(٣) (غدا أنسى — عام ١٩٨٠م) ومنذ ذلك العام بدأت التأليف الروائية في المملكة العربية السعودية في تزايد مطرد ، فإذا بنا أمام عدد من الأعمال الناضجة يصل إلى أكثر من سبعين عملاً . وهذه الأعمال ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه لولا قيام بعض المدارس النقدية التي اهتمت بالأعمال الروائية باعتبارها نوعاً أدبياً حديثاً ولا تزال في حاجة ماسة إلى الدراسة النظرية و التطبيقية لتعرفنا بجماليات هذا الفن .

فالعمل النقدي في كثير من الحالات يبصر الكاتب بمواطن ضعفه ليلتفت إليها ويقومها وقد أسفرت هذه الحركة النقدية عن ميلاد مجموعة جديدة من الكتب النقدية الخاصة بالرواية مثل (فن القصة في الأدب السعودي الحديث) للحازمي ، و(فن الرواية في المملكة العربية السعودية) للسيد محمد ديب ، و(فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر) لمحمد صالح الشنطي ، و(الرواية في المملكة العربية السعودية — نشأتها وتطورها — ١٩٣٠ — ١٩٨٩م) لسلطان سعد القحطاني . في هذا الجو من التطور الثقافي والأدبي والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والإبداعية لدى الإنسان السعودي ، ولدت الرواية الحديثة التي وافقت في شروطها الفنية الروايات العربية ، والغربية فكتب محمد عبده يماني (فتاة من حائل — عام ١٩٨٠م) الذي أراد لروايته أن ترصد بعض الملامح من الواقعية التي عاشها في المجتمع السعودي ومخاطبته للشباب السعودي وتقديم لهم النصيحة ، والارشادات من خلال بعض المشاكل التي يرى أنها ستواجههم في بدايات حياتهم العملية . وكتب طاهر عوض سلام (الصندوق المدفون — عام ١٩٨٠م) ، وكتبت أمل شطا روايتها (لعاش قلبي — عام ١٩٨٩م) ، التي تناولت

١- هدى عبدالمحسن الرشيد ، ولدت بعنيزة بالقصيم ، تكتب الرواية والقصة الطويلة ، صدر لها (نساء عبر الأثير ، ورواية عبث) أنظر معادلات القصة النسائية السعودية ، ط١ ، ص٢٩٦ .

٢- سميرة محمد خاشقجي ، ولدت بمكة المكرمة ، كانت تكتب تحت أسم بنت الجزيرة العربية ، عاشت حياتها بين مصر ولبنان ، صدر لها ست روايات ومجموعتان قصصيتان وكتاب واحد ، من أبرز أعمالها (بريق عينيك ، وادي الدموع ، ذكريات دامعة ...) أنظر موسوعة الأدباء السعوديين ، ١ / ٢٨٨ و٢٨٩ .

٣- أمل محمد شطا ، من مواليد مكة المكرمة ، صدرت لها روايتان (غدا أنسى ، و لعاش قلبي) ، وهي من أبرز الكتابات في المجال الروائي وبالأخص السعودي ، أنظر موسوعة الأدباء السعوديين ، ٢ / ١٢٤ و ١٢٥ .

مشاكل التحول وخصوصاً مشكلة المرأة فقد عنيت بالبيئة المحلية ، وأبرزت خصوصيتها من خلال تطويرها للمعالم الاجتماعية البارزة في هذه البيئة ، مما لفت نظر بعض الكتاب السعوديين وتأثرهم بها. وكتب إبراهيم الناصر روايته (غيوم الخريف - عام ١٩٨٩م) ، التي تقوم فكرتها الأساسية على إبراز العلاقة بين الشرق والغرب والتأثر بهم ، " المتميزة بالرؤى الاجتماعية الانتقادية ومحاولة الكاتب في روايته أن يرصد ومن خلال إدراك عميق ووعي متحفظ ، ذبذبات الحركة التي سرت في الكيان النفسي والاجتماعي نتيجة للهزة المفاجئة التي ألمت بمنظومة القيم والعلاقات الإنسانية أبان فترة الازدهار التي اصطلح على تسميتها بمرحلة الطفرة ، والكاتب يعبر عن ذلك كله عبر البناء المعماري الفني للرواية " (١) . ويطول بنا الأمر إذا أردنا تعداد أعمال غالب حمزة أبو الفرج ، وأعمال محمد عبده يماني ، وأعمال زيد السويداء ، وأعمال عثمان صالح الصوينع ، وأعمال محمد زارع عقيل .. وغيرهم كثير....! مما يدعو للتأكيد على أن الرواية السعودية على درجة الخصوص قد أخذت طابعها الخاص بها وبيئتها ، وأصبح لها روادها ، الأمر الذي يميزها عن غيرها وأي رأي أو دراسة لا تؤكد ذلك تعد دراسة تستمد آراءها من منظور قديم . (٢) وهذا واضح من المظاهر الأدبية التي بدأت تخيم على الرواية السعودية . فهي رواية متعددة الألوان في المضمون والأفكار والاتجاهات ، وتهتم اهتماماً كبيراً بالبيئة والمكان مثل رواية (سقيفة الصفا - عام ١٩٨٣م) ، مثلما اهتمت بهموم الإنسان كالاغتراب وعمل المرأة والهجرة للمدن (الوسمية - عام ١٩٨٦م) و(الغيوم ومنابت الشجر - عام ١٩٨٩م) مثلما اهتمت بالجانب التعليمي والإصلاحى مثل (السنيرة عام - ١٩٨٠م) ، و(درة من الإحساء - عام ١٩٨٧م) ليهية بوسبيت و (إبحار في الزمن المر - عام ١٩٨٨م) لحمد الراشد . ولفتت هذه الروايات وغيرها ، عناية النقد والنقاد الأدبيين مما أسفر عن ظهور مؤلفات اتخذت من الرواية موضوعاً لها . ولا يخلو الأمر من ظهور كتاب جدد من حين لآخر يغنون هذا الحقل الأدبي ويواصلون المسيرة .

١- محمد صالح الشنطي ، فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، ط٢ ، ٢٠٠٣م ، ص ١٢٥ / ١٢٦ .

٢- سلطان القحطاني ، الرواية في المملكة العربية السعودية نشأتها وتطورها ، مطبعة الصفحات الذهبية ، الرياض ، ط١ ، ص ٤٠ .

وفي "عقد التسعينيات الميلادية ومابعدهما بدأ المشهد الروائي السعودي مغرباً للتأمل والبحث والنظر بعين الاهتمام ، إذ ظهرت مجموعة جديدة من الروائيين أغنوا الرواية بأعمال متطورة تقنياً ، فبدأ اهتمامهم بالجوانب الجمالية الفنية والمكانية واضحاً مثل روايات : عبده خال (الموت يمر من هنا - عام ١٩٩٥م) ، و(مدن تأكل العشب - عام ١٩٩٨م) ، و (الطين عام ٢٠٠٢م) ، وروايات حديثة لعبد العزيز مشري مثل (ريح الكادي - عام ١٩٩٣م) ، ورواية (صالحة - عام ١٩٩٧م) ، ورواية (الحفائر تتنفس - عام ٢٠٠١م) ، لعبد الله التعزي ، ورواية (ميمونة لمحمود تراوري - عام ٢٠٠١م) . وبدأ القلم النسائي أكثر قوة وحضوراً ويتجلى ذلك في إسهامات أمل شطا (أدم يا سيدي - عام ١٩٩٦م) ، ورواية (امرأة على فوهة بركان لبسبية بوسبيت - عام ١٩٩٦م) ، وروايات (مسرى يا رقيب - عام ١٩٩٧م) ، و(خاتم - عام ٢٠٠٢م) ، لرجاء عالم ، ثم رواية (الفردوس اليباب - عام ١٩٩٨م) ، لليلى الجهني ، وقد جاءت كتابتهن لهذه الأعمال على مستوى عالٍ من الشفافية والالتزام بأركان القصة الفنية و الجمالية وبرز اهتمامهن الواضح في كثير من الأعمال بجمالية المكان الروائي " .^(١) ويمكن الحكم على مستقبل الرواية في المملكة العربية السعودية من خلال الإنتاج الصادر حالياً والنقد الذي يحص هذا الإنتاج وتعرف الرواة بما يجب عليهم ، والجو العام الذي يعيش فيه الناس قراءة وأدباء و نقادا ، أنه مستقبل يبشر بالكثير من الأعمال الجديدة ، لاسيما وأن الرواية السعودية في تطور متصل "ونؤكد أنه ستبقى القصة السعودية مقصورة عن قصص العالم العربي إذا ظل أدباؤها مهملين الإطلاع على ما يصدر كل يوم في البلاد المجاورة وغيرها من أثار قصصية فنية تكاد توازي خير القصص العالمية ، وكذلك إذا لم ينكبوا على دراسة الكتب العلمية التي تبحث في فن القصة من حيث هي فن أدبي له مقوماته وأصوله ، وله ألوانه المختلفة كالحكاية ، والأقصوصة ، والقصة والرواية ، كذلك إذا لم يؤمنوا أن إتقان لغة أجنبية واحدة - على الأقل - يرفع ثقافتهم الفنية ويضعهم وجها لوجه أمام الإنتاج العالمي الرفيع بلغته الأصلية دون أن يصل إليهم عن طريق الترجمة التجاري في أكثر حالاتهم . والأمر الأكثر أهمية إن لم يتم

١- حسن محمد النعمي : رجوع البصر ، قراءات في الرواية السعودية ، نادي جدة الأدبي ، ١٤٠٤م ، ص

الفصل الأول : مقدمات نظرية حول مفهوم المكان

مدخل:

إن ارتباط الإنسان بالمكان وإحساسه به شيء فطري ، ولعل أول مكان ارتبط به الإنسان هو رحم أمه ، ثم يبدأ ارتباطه بالعالم الخارجي إلى أن ينمو لديه الإحساس بالوطن والبيئة . وقد اتخذ الشعور بالمكان/الوطن بعداً أكثر عمقاً وشعوراً فكل إنسان على ظهر هذه الأرض له وطن أصغر ... مصر، السودان ، الأردن ، ... الخ ، ووطن أكبر ذو تراث وفكر ولغة مشتركة كالوطن العربي ، والأمة العربية. غير أن هناك أماكن تأتي أن تصبح لساكنيها مجرد وطن أصغر أو أكبر فتضيق عن أن تستوعب هذا الزخم الروحي وعبق التاريخ الديني مثل مكة ، والمدينة ، والقدس الشريف ، وغيرها من المدن ذات الإرث الثقافي للحضارات الضاربة في القدم كالأهرامات.

ولعل علاقة الإنسان بالمكان تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفر في الإنسان خصائصه وملامحه فإنه ينحفر المكان بالإنسان وفعالياته المستمرة . ويمكن القول: إن الجسد الإنساني يعد امتداداً للمكان وحسب قوانينه يتشكل ويتكون ، فالانتماء للمكان يبدأ من الصغر، وتتضافر عوامل سيكولوجية وثقافية علي تغذية هذا الحس وذلك لأن " حس المكان حس أصيل وعميق في الوجدان البشري ولاسيما إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء"^(١).

عدا عن أن التغييرات التي تحدث في بنية المكان ، إيجابية كانت أو سلبية ، عبر مسيرة التاريخ تتحول من فترة إلى أخرى عبر الفعل الإنساني الذي يجري تغييرات بنوية في تصوراتنا عن الكون وفي طبيعة المكان ، إذ إن عمليات الارتقاء بالمكان أو تخريبه مرهونان بالفعل الإنساني ففيه الشيء الذي يجعل من المكان مختزلاً لكل تلك الأحداث ، فمرورنا بمكان ما هو استحضار ما لذلك المكان من تاريخ يبعث في النفس نوعاً معيناً من التأثير على النحو الذي عبر عنه الشاعر قيس بن الملوح :

١_ محمد شوابكة : دلالة المكان في مدن الملح ، مجلة أبحاث اليرموك ، المجلد التاسع ، العدد الثاني ، ١٩٩١م ،

وقفت على الديار ديار سلمي أقبل ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وكان قبلاته ستتخلل الحجر وصولا إلى ساكن الدار ، وما يناله من لذة التقبيل يعود عليه بالنشوة مما يجنيه من حرارة الخد. ولن نستبعد تلك النشوة إذا تماهينا عاطفاً مع المشغوف وتلمسنا حرارة حبه أمكننا تلمس الدفء في الحجارة ، والذي نجنيه من هذا الموقف التمازج الحاصل بين المكان والمرأة والتي صورتها حاضرة بمفاتها تتأرجح بين الذكرى الحلوة والفقْد المرير.

" والمكان يبدو كما لو كان مختزنا حقيقياً للأفكار والمشاعر والحدوس حيث تنشأ بينه وبين الإنسان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر"^(١). وكما هو معلوم " أن سطوة المكان على الإنسان تتفاوت تفاوتاً كمية ونوعياً، ومن هنا اكتسبت الأماكن في علاقتها مع ساكنيها خصوصية تشكلت من تعاقب التفاعل وتبادل التأثير بين الناس والأمكنة ، حتى صارت تلك الآثار جزءاً من الوعي العام للإنسان في ذلك المكان"^(٢).

لقد حاول كثير من الروائيين وهم يصفون المكان منازل وسجوناً وأحياء وغيرها التوقف عند الحياة المنبعثة منها وكأنها كائنات لها من الخصوصية ما يجعلها ، وهي تلامس الوافد عليها ، تملؤه وتخالطه وتتخلله بما لديها من مشاعر وأحاسيس. فقد ينتابنا الشعور بالضيق والاختناق ونحن ندخل بعض البيوت لأول مرة أو نعبر بعض الشوارع ، أو نجلس في بعض الأمكنة ، وقد تسري في أجسادنا قشعريرة الخوف الغامض والتقرز المحرج ، ونحن ندخل أماكن تواجهنا أول مرة بما يملأ صدورنا توجساً وخشياً ، كما أننا قد نشعر بالعظمة والهيبة والانبطاط في مواطن يعمرها الجلال والجمال أو يسكنها الحبيب.

١_ حسن بحرلوي : بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ٣١ .

٢_ عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١

مصطلح المكان :

وقبل الدخول في تفاصيل المكان الروائي علي مستوى البنية والعلاقات النفسية يفترض بالقراءة أن تميز بين المكان ، والفضاء ، بحثا عن الدقة الموضوعية ، وذلك بالاستناد للدراسات المكانية المعاصرة في الخطاب النقدي.

فمجموعة من النقاد يستعملون مصطلح المكان ، والأخرى تستعمل مصطلح الفضاء.

وقد ذهبت التعريفات اللغوية للمكان PLACE إلى :

١. المكان هو الموضع.^(١)

٢. أنه الحاوي للشيء.^(٢)

٣. كلمة تدل علي تحديد الإطار الذي يحل فيه الجسم في اي حالة يكون وبما يدل علي انتمائه المكاني وهو الدال علي العلاقة المشتركة بين الأبعاد الثلاثة الطول، العرض، العمق(في الهندسة المستوية).^(٣) وغيرها من التعريفات التي لا مجال لذكرها.

أما مصطلح الفضاء SPACE فهو الفراغ أو الفضاء الخارجي المحيط بالمادة والمكان ، وهو يقابل في العربية المكان عند الفلاسفة المسلمين " للدلالة علي الحيز مجردا عن الشيء الذي يحمله ويجسده كمفهوم قائم بذاته مستقل عن محتواه . وهو الامتداد اللامحدود الذي يحوي كل الامتدادات الجزئية المحدودة " ^(٤). والذي يستنتج من المعاني والتراكيب اللغوية التي توردتها المعاجم اللغوية إن الفضاء SPACE وإن المكان PLACE هو الجزئي وإن الموضع LOCATION الذي هو فعل التحديد المكاني أوحالة الكينونة المكانية والأكثر جزئية والأكثر تحديدا.^(٥)

أما المكان في الأدب " فهو نظام من العلامات التي يتمازج فيها المحسوس بالمجرد الذهني . ويبرز من خلال الحيوية والطاقة التعبيرية التي يضيفها تصوير الأديب لمحتوي النص

١- ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، دبط ، ١٩٥٦م ، ص ٤١٤ .
٢- نقلا عن : طاهر عبده مسلم : عبقرية الصورة والمكان ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٢ .
٣- محمد علي التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون ، ج ٢ ، تحقيق لطفي عبد البديع ، الهيئة العامة للتأليف ، مصر ، ط١ ، ١٩٦٩م ، ص ١٧٠ .
٤- ب.س. ديفيز : المكان والزمان في العالم الكوني الحديث ، ترجمة أدهم السمان ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص ٧ .
٥- طاهر عبده مسلم : عبقرية الصورة والمكان ...، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

الأدبي ، أو هو النحت الذي تتشكل جماليته من تفاعل الكتلة بالفراغ الذي نحتلُ جانباً منه ونتخذ موقفاً في فضائه" (١).

" فالفضاء الروائي والمكان الروائي مصطلحان بينهما صلة وثيقة وإن كان مفهومهما مختلفا فالمكان الروائي حين يطلق من أي قيد يدل على المكان داخل الرواية سواء أكان مكانا واحد أم أمكنة عدة . أما مصطلح الفضاء الروائي فيقصد به أمكنة الرواية جميعها . بيد أن دلالة مفهوم الفضاء لا تقتصر على مجموع الأمكنة في الرواية ، بل تتسع لتشمل الإيقاع المنظم للحوادث التي تقع في هذه الأمكنة ، و لوجهات نظر الشخصيات فيها . ومن ثم يبدو مصطلح الفضاء أكثر شمولاً واتساعاً من مصطلح المكان" (٢).

إن هذا الفرق بين المكان والفضاء يتجه بالقراءة إلى تعميق التمييز بينهما ، ومن ثم الانحياز إلى استخدام مصطلح الفضاء والمضي قدماً في توسيع مفهومه ، وتوثيقه أكثر على الصعيد النقدي والإجرائي.

١- إبراهيم خليل : جبرا إبراهيم جبرا ، دراسات أدبية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١م ص ١٧ .
٢- سمر روجي الفيصل : الرواية العربية البناء والرؤيا ، مقاربات نقدية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٧١ .

الزمانية :

كثرت في الآونة الأخيرة تلك الدراسات الأدبية التي تستقري المكان أو الزمان أو كليهما معا في النص الروائي ، واستجلاء مرامي أدبيته في الرواية العربية الحديثة ، ونقول الحديثة لنضجها الفني واستشعار ما للمكان والزمان من تجلٍ يضيف على النص الروائي جودة كلما كان الاهتمام بهما من جهة الروائي ، و تكاد غالبية الدراسات الأدبية والنقدية في تحليلها للنصوص الروائية تجمع على أن ليس ثمة فصل بين المكان والزمان في سعيها إلى استقصاء أدبية النص الروائي ، الذي بطبيعته إنما يدور في إطار أفعال تتم من خلال أحداث ، وأزمنة ، يستوعبها حيز مكاني ، فالزمان يكسب المكان هويته ومكانيته إن صح هذا التعبير وما نرومه في هذا الفصل هو ملامسة جانب لا يكاد يلتفت إليه أحد من دارسي المكان ، ذلك لأن المكان مجال محدود معلوم والمكان الذي نحن بصددده وإن حمل من نعوت المكان نعت (الدار - البيت) فإنه مكان زماني لانصراف دلالته للظرف الزماني الذي يحتوي الأحداث التي شكلت قيمته الدلالية.

ويرى صلاح صالح : " أن الأحداث الروائية لا تتحرك إلا بتحرك الشخصيات في المجالين الزمني والمكاني ، والتحرك الإنساني في المجال الزمني يعني بالضرورة حركة للزمان نفسه ، بينما لا يعني الأمر نفسه بالنسبة للمكان، فإن أي حركة تستغرق مسافة زمنية ، وهذه المسافة قابلة للقياس لوحدات قياس الزمن المعتادة كالعام والشهر واليوم والساعة والوحدة الزمنية في المسافة بحد ذاتها تعني حركة جرم في المجال المكاني (الساكن) من نقطة إلى نقطة أخرى ، فالعام كوحدة لقياس الزمن يعني انتقال الكرة الأرضية من مكان ما في مدارها حول الشمس إلى المكان نفسه بعد أن تكون قد قطعت مسافة هائلة في الفضاء الكوني"^(١).

" فعملية التماهي بين المكان والزمان أفضت إلى الاستحالة الموضوعية لوجود أحد العنصرين معزولا عن الآخر إضافة لإمكانية اعتبار المكان تجسيدا ملموسا لفكرة الزمان، واعتبار الزمان حالة مكانية"^(٢).

"ولا شك في أن الزمان يشارك المكان في العديد من خصائصه مثل التواصل والاتجاه والاتصال وإن كان المكان يعد ذا بعد واحد وليس ثلاثة أبعاد كشأن المكان ، وهو يتسم كذلك ببنية مترية إذ يمكن تعريف المسافة بين نقطتين من حيث الوقت بأنها المدة بين حدثين "من الساعة

١- صلاح صالح : قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص ١١٥ .

٢- المرجع نفسه ، ص ١٢٧ .

الواحدة إلى الساعة الثانية مثلا " وتبعث هذه الأسباب على اعتبار الزمان مكاناً مترياً رياضياً أحادي البعد ، ولا ينبغي ذلك إلى إرباك القارئ أو إلى دفعه للاعتقاد بأن الزمان هو مكان حقيقي في صورة مقنعة مستترة أو أي شيء من هذا القبيل"^(١). علاوة على ذلك فقد ثبت أن توحيد الأبعاد الثلاثة للمكان والبعد الواحد للزمان في إطار (مكان - زمان) رباعي الأبعاد يتسم أيضا بصفة المترية ويعطي نتائج أدق ، وبالتالي سوف نستخدم دائما كلمة "المكان" في السياق الرياضي لتغطية جوانب كل من المكان الحقيقي والزمان أو الزمكان.

وإذا ابتعدنا قليلا عن جفاف الرؤى الفلسفية إلى الرؤى النقدية التي تتوجه للنص الأدبي فإننا سنجد علاقة المكان بالزمان علاقة تجسيد تختلف في النوعية لتتفق في الجوهر من حيث احتواء المكان للزمان بما يؤديه كل منهما للكشف عن جماليات النص.

"إن الزمن الحكائي في الرواية يمكن تمييزه بزمنين الأول زمن السرد الذي يتناسب مع البنية السردية ، وزمن القصة وهو مجموع المدة التي تستغرقها القصة"^(٢) "والإشارة الصريحة ، أو الضمنية إلى الزمن في الرواية لا تنقلنا مباشرة من النص إلى الواقع ولكنها فقط تجعلنا نمتلك النص زمنياً ونحس بنبض الحركة الداخلية فيه"^(٣).

ويرى بعض النقاد أن السرد يتكون من عنصرين:

قصة تتشكل في حدث أو مجموعة أحداث وطريقة سردها ، ومفهوم السرد الفني وهو طريقة صياغة الرواية وتوصيلها إلى القارئ ، وكل قصة في الواقع لها تتابع زمني منطقي يسير بانسيابية غير أن الروائي لا يتقيد بالتتابع الزمني للحدث ، فيمكنه أن يبدأ من نهايته أو وسطه ليحدث جانبا مهما في الرواية وهو عنصر "التشويق" وسعياً وراء بعض الأهداف الجمالية.

وقد قسم بعض الباحثين^(٤) الزمن الروائي إلى ثلاثة أنواع :

١. الأزمنة الخارجية:

/ و تتمثل في زمن القص : وهو الزمن التاريخي في بيانه لعلاقة التخيل بالواقع .

١- ب.س. ديفيز : المفهوم الحديث للمكان والزمان ، ترجمة السيد عطا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، د.ط ١٩٩٨م ، ص ٢٢ .
٢- علي إبراهيم : الزمان والمكان في روايات غائب طعمة فرمان ، الأهالي للطباعة والنشر ، دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ص ١٠٥ .
٣- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ... ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .
٤- محمد عزام : فضاء النص الروائي ، مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

ب/ زمن الكتابة : هو الظروف التي كتب فيها الروائي والمرحلة الثقافية التي ينتمي إليها . وهنا يتداخل زمانان - قبلي في ذهن الكاتب - وزمن بعدي يكتبه الكاتب وهو يمارس عملية الكتابة .

ج/ زمن القراءة : وهو زمن استقبال القارئ للعمل الفني ، ويختلف باختلاف الزمن الذي تمارس فيه القراءة ، وباختلاف ثقافة القراء أنفسهم.

٢/ الأزمنة الداخلية :

وتتمثل في زمن النص : وهو الزمن الدلالي الخاص بالعالم التخيلي ، ويتعلق بالفترة التي تجري فيها أحداث الرواية.

٣/ الأزمنة التخيلية :

وتتعلق بزمن الشخصيات في الرواية والذي بدوره ينقسم إلى ثلاثة أزمنة :

أ/ ماضٍ ب/ حاضر ج/ مستقبل

وهذه الأزمنة يتم ترتيبها وفقاً لتسلسل منتظم . فالزمن الروائي هو اللحظة التي يتحدث فيها الراوي عن زمن معين علاقته بالمكان هو أن المكان لا يمثل قيمته الدلالية إلا لما دارت فيه من أحداث فإذا كان المكان هو الحاوي للأحداث فالزمن هو المحرك له .

كما أنه لا يمكن الحديث عن المكان بمعزل عن الزمان حتى إنه لو نتبعت عناوين

البحث ستجد أن المكان اتحد بالزمن في الأسم (الزمان الكرونوتوب) .

المكان الروائي :

لقد أخذ الحديث عن المكان في الرواية بالمملكة العربية السعودية كما في غيره من البلدان أبعاداً مختلفة بحسب زوايا الرؤية التي عالجتها من جهة ، وبحسب الفهم الذي أنيط به من جهة أخرى ، ذلك أن المكان في صلته بالذات المبدعة والمتلقية يتخذ من الصفات المتشابهة ما يجعله من المقولات الأكثر تعقيداً على مستوى المعنى والمبنى . وأن فك هذه العلاقات يقتضي من الدرس التحليلي أن يسترفد سائر المعارف التي انتجت علوم أنسان تلك المنطقة لفك ألغازه حتى تنفضي إلى الحقيقة التي من أجلها سيق المكان في الرواية موضوعاً ، أو إشارة ، أو رمزاً .

" وتأتي أهمية دراسة المكان في الرواية العربية من كونها مرشداً إلى نماذج أكثر دلالة على الحياة ، وإسهاماً في تطوير الإبداع الروائي ، وعلى الرغم من هذه القيمة الكبرى للمكان في الرواية العربية ، فإنه لم يحظ بالإهتمام اللازم من قبل الباحثين والنفاد ، فالمكان عدا أنه خلفية للأحداث هو عنصر حكاية قائم بذاته إلى جانب العناصر الفنية الأخرى المكونة للرواية."^(١)

وكما جاء سابقاً في نظرية الرواية "يدخل المكان عنصراً رئيساً لا يمكن تجاوزه في أي عمل روائي ، وقلمنا نعثر على تعريف للرواية يهمل عنصر المكان"^(٢).

والمكان كما يراه البعض يشمل " البيئة بأرضها ، وناسها ، وأحداثها ، وهمومها ، وتطلعاتها ، وتقاليدها ، وقيمها ، فالمكان بهذا المفهوم كله زاخر بالحياة والحركة يؤثر ويتأثر ويتفاعل مع حركة الشخصيات وأفكارها كما يتفاعل مع الكاتب الروائي ذاته"^(٣).

ويرى محمد عزام " أن وصف المكان تقنية إنشائية تتناول وصف مكونات الواقع أو وصف الواقع الحسي في مظهره ، وهو نوع من التصوير الفوتوغرافي لما تراه العين عند الأدباء الواقعيين الذين استقصوا تفاصيل الأمكنة والأشياء ، على أنها حقيقة مستقلة عن الشخصية ، وإنما هي صدى للشخصية والأحداث. ومن هنا الفرق بين الوصف الفوتوغرافي الذي يصور الأشياء كما هي ، والوصف التعبيري الذي يصور الأشياء من خلال إحساس المرء بها"^(٤) وليس المكان مكاناً واحداً بل أمكنة تتعدد كلما تعددت القراءة وتجددت أدواتها واغتنمت بالجديد من

١- محمد عزام : فضاء النص الروائي ، مقارنة بنوية تكوينية في أدب نبيل سليمان ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص١١١ .

٢- صلاح صالح : قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر... ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

٣- نقلاً عن : لسيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ...، مرجع سابق ، ١٨ / ١٩ .

٤- محمد عزام : فضاء النص الروائي... ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

المعرفة ، والمقاييس ، واختلفت زوايا النظر إليه ، لأن جمالية المكان بمثابة نداء يوجهه الروائي إلى المتذوق مهيبا بتخيله أن يعمل عمله من وراء المدرك الحسي ، وليس مخيلة المتذوق أو المتخيل بمجرد وظيفة تنظيمية تقتصر على تنسيق الإدراكات الحسية بل هي وظيفة تركيبية تقوم بعملية إعادة تكوين الموضوع الجمالي ابتداء من تلك الآثار التي خلفها ذلك الروائي.

" والمعروف أن المكان الروائي هو المكان اللفظي المتخيل ؛ أي المكان الذي صنعته اللغة انصياعاً لأغراض التخيل الروائي وحاجاته . وهذا يعني أن أدبية المكان ، أو شعرية مرتبطة بإمكانات اللغة على التعبير عن المشاعر، والتصورات المكانية ، مفضية إلى جعل المكان تشكيلاً يجمع مظاهر المحسوسات والملموسات ، ومكوناً من مكونات الرواية يؤثر فيها ويتأثر بها"^(١).

ولا يمكن حصر الأمكنة في الرواية ، فهي أمكنة مجازية غير مؤكدة الوجود وتعرف ذهنياً ، ولا تعاش ، وتبتدي من الأمكنة الأقل دلالة التي هي مسرح لأحداث معينة فقط ، إذ إن ليس كل مكان هو بالضرورة مكاناً ذا قيمة دلالية روائية ، وحتى الأمكنة الأكثر ثراء التي عايشها الإنسان بتجربته الذاتية ، فتموّعت في أحاسيسه وصارت جزءاً من وعيه النفسي ، وهو مكان انتقل من حيز المكانية إلى رحابة الرمزية . "وهو المكان الذي ارتبط برمز الأمومة ، وبكل جوانبها بجوانبها العاطفية ، والإنسانية كلها من حيث هي أم ، ومن حيث هي رمز الرابطة المتينة التي تربط كل أطراف العائلة"^(٢) . وتتمثل في مكانية رحم الأم كمكان خارج حدود الوعي الإدراكي ، بل هو نتيجة ذلك الحنان المتبادل لأسمي معاني الانتماء ، فالأم كمكان عشنا فيه نعتبر لها مكاناً انشطر منها برغبة خلاقة لإيجاد من يمثل استمراريتها في الحياة ، لذا تظل تشتاق أبداً لذلك الجزء . كما يتمثل في البيت ، الذي هو جسد وروح ، وهو عالمنا الأول ، فالحياة تبدأ بداية جيدة مفعمة بالحنان والاطمئنان والدفء " فحين نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه ، وبينما نحسن في أعماق الأسترخاء القصوى ننخرط في ذلك الدفء الأصلي ، في تلك المادة لفردوسنا المادي . هذا هو المناخ الذي يعيش الإنسان في داخله ."^(٣).

١- سمر روجي الفيصل : الرواية العربية البناء والرؤيا ، مقاربات نقدية ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، د.ط ، ٢٠٠٣م ، ص ٧٢ .
٢- شاكور النابلسي : مدار الصحراء ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٤م ، ص ٢٣٤ .
٣- غاستون باشلار : جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ط ٥ ، ٢٠٠٠م ، ص ٣٨ .

وهناك أمكنة متعددة السمات والوجود الحقيقي ، أو المتخيل ، والروائيون يوجدون أحيانا أمكنتهم ، فهم يتحدثون عن مدن الحلم ، وصحراء التيه ، والأمكنة المفترضة ، والأمكنة اليوتوبية.

وقد صنف نقاد الرواية المكان إلى عدة أمكنة أو أبعاد مكانية. "يبدو الحديث عن أبعاد المكان ضربا منه النزوع التجريدي الذي يسهم في قطع الصلات بين التصورات النظرية ومعطيات الواقع الموضوعي . فالتعامل الإنساني . بشيوعه العريض يتواصل مع المكان ، واقعا وفنيا ، خارج منطق القياس والأبعاد ، إنه يتعامل معه من حيث هو كمعطى وجودي ، ينضم إلى المعطيات الأكثر سلبا من معطيات الحياة . ولكن الصعود قدما في سلم التفكير، الذي يتشكل من ماهية مجردة ، يخضع المحسوسات ذاتها إلى قدر من التجريد ، ولطالما اعتبرت القدرة على الانتقال من المحسوس إلى المجرد إحدى وحدات قياس الرقي الفكري وتطوره ؛ فضلا عن أن التفكير بالشيء ، أمر يختلف عن موضوع التفكير، وهذا من المسوغات التي تجعل المكان قابلا للصياغة النظرية التجريدية ، إضافة إلى أبعاده المادية الملموسة"^(١).

وقد قسم صلاح صالح في كتابه قضايا المكان الروائي المكان إلى عدة أبعاد هي: (٢)

- ١- البعد الفيزيائي.
- ٢- البعد الرياضي - الهندسي.
- ٣- البعد الجغرافي.
- ٤- البعد الزمني التاريخي.
- ٥- البعد الذاتي - النفسي.
- ٦- البعد الواقعي - الموضوعي.
- ٧- البعد الفلسفي - الذهني.
- ٨- البعد التقني - الجمالي. ومايهمنا في تناول الرواية السعودية من زاوية المكان هو البعد الأخير : التقني - الجمالي .

١- صلاح صالح : قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص٤١ .

٢- المصدر نفسه ، ص ٤٢ - ٦١ .

ولعل دراسة غالب هلسا للمكان في الرواية العربية^(١) هي أول الدراسات التي تناولت المكان باعتباره عنصراً حكاثياً مهماً في الرواية ، وقد نظر الباحث إلى علاقة التأثير المتبادل بين المكان والسكان ، وبين أن المكان ليس ساكناً بل هو قابل للتغيير بفعل الزمان. وقد صنف هلسا المكان إلى :

أ/ مكان مجازي:

وهو المكان الذي نجده في رواية الأحداث المتتالية ، وهو مكان سلبي ، مستسلم ، يخضع لأفعال الأشخاص.

ب/المكان الهندسي:

وهو المكان الذي تعرضه الرواية بدقة وحياد من خلال أبعاده الخارجية.

ج/المكان كتجربة معاشة وهو قادر على إثارة ذكرى المكان عند المتلقي^(٢).

ومن الضرورة بمكان أن يدرك الدارسون أن الفضاءات الروائية ، المكانيّة ، والزمانية هي فضاءات متعددة ، ومتنوعة ، ومتجددة ، وكل منها يسمح بأفاق تتوالد منها أخرى لأنها تتحدث - أي الفضاءات - عن مجموعة مشاعر واحاسيس وتصورات يجسدها الروائي ، كما أن صورة المكان الواحد تتنوع بحسب زاوية النظر إليها ، التي هي مسئولية القارئ أو الدارس في الفهم ، لأن الفن ، كما الحياة ، على المتلقي أن يبذل جهداً كي يستوعب غذاءه الفكري ، مثلما يكدح كي يتوفر له الغذاء المادي ، إذ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

١- لعل دراسة هلسا هي أول دراسة بالعربية نبهت النقاد والباحثين إلى أهمية "المكان" في الإبداع الروائي العربي ، رغم تأثرها بدراسة جماليات المكان لغاستون باشلار التي ترجمها هلسا نفسه. أنظر محمد عزام : فضاء النص الروائي : مرجع سابق ، ص ١١٢.

٢- المصدر نفسه ، ص ١١١/١١٢.

المكان في الرواية السعودية :

إن المتابع لما أفرزته الذائقة الإبداعية السعودية في ميدان القص الروائي تروجه كثرة هذا المنجز وتنوعه ونضجه الفني ، وهي كثيرة تجعل من فن الرواية بالمملكة مشروعاً ثرياً لا غنى للدارسين من خوض غماره لما له من خصوصية تتبع من اكتناز الفضاء السعودي بتراث ديني بلغت انتباه كل روائي . فقد استطاع الروائي السعودي وعبر فترة زمنية قصيرة نسبياً أن يبدد الهوة الشاسعة التي كانت تفصل بينه وبين ابداعات مناطق عربية أخرى تجاوزته زمناً وسبقته كما وكيفاً ، وأن يبدع أدباً روائياً مضمخاً بسماته المحلية دون أن يتجاوز المقومات البنائية لهذا الفن .

ولما كان فن الرواية السعودية فناً حديث النشأة والولادة ، فإن الاتجاهات الفنية وجدت سبيلها إليه متجاوزة غير متعاقبة ، دون تقاطع داخل المشهد الروائي ، بصفة عامة ، ولدى المبدع بصفة خاصة. وشغل الروائي السعودي برصد جماليات المكان باعتباره وعاءً فكرياً يلعب دوراً فعالاً في تشكيل الذاكرة الجماعية للمنتمين إليه ، وعني برصد تجلياته في فضاء السرد ، وموقف شخصه منه رفضاً وقبولاً تمرداً وخنوعاً وهي عناية تجلت منذ الولادة الأولى لهذا الفن ، وبدت عبر صور متعددة وأطوار فنية متعاقبة.

فالمتمأمل للمشهد الروائي السعودي يجد اهتمام الروائيين بالمكان من حيث هو مكون أساسي لجماليات النص الروائي وسنذكر لاحقاً بعض الأعمال التي أولت المكان جانباً من الإهتمام في نسجها القصصي على سبيل الأمثلة ، معتمدين على التنوع المكاني والزمني داخل الرواية.

١ - (نقب في رداء الليل - عام ١٩٦١م) إبراهيم الناصر :

" واحدة من الروايات المتميزة التي ظهرت أبان تطور الرواية السعودية ، وانتقالها إلى مرحلة جديدة أخذت تعبر فيها عن الحياة الحديثة التي تميزت بالنهضة التعليمية وظهور الطبقة المتقفة ، والتي اعتنت أيضاً بالبيئة المكانية التي عاشها المجتمع السعودي خلال تلك الفترة .." (١)

١- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ،

٢ - (زائر المساء - عام ١٩٨٠م) لسلطان سعد القحطاني :

تبرز كثيراً من خلفيات البيئة المكانية وخلفيات اجتماعية ومظاهر طبيعية ، ومن الروايات المتميزة التي أظهرت جماليات المنظر المكاني السعودي بسياق يواكب روح التعامل الأدبي خلال تلك الفترة .

٣ - (سقيفة الصفا - عام ١٩٨٣م) لحمزه بوقري :

إن (سقيفة الصفا) " وثبة كبيرة في الرواية السعودية سواء من ناحية الشكل والتكنيك الفني أم من ناحية المضمون ، حيث استطاع المؤلف أن يصور البيئة المكية تصويراً صادقاً ، وينقل بعض جوانب الحياة الاجتماعية في تلك البيئة بكل ما تموج به من عادات وتقاليد ، وما تزخر به من أفكار ومعتقدات ، وقد وفق في ذلك توفيقاً كبيراً .. وتعد (سقيفة الصفا) واحدة من الروايات التي تبرز مظاهر البيئة وخلفية المكان ، مشحونة بالعديد من الأحداث والأشخاص والمواقف... " (١) .

٤ - (لا ظل تحت الجبل - عام ١٩٨٣م) لفؤاد عنقاوي :

تؤكد رواية (لا ظل تحت الجبل) عند القارئ أحساساً حقيقياً بملامح مكة المكرمة في مرحلة من تاريخها ، والحياة والتقاليد المكية ، ومعاملات الناس اليومية ، وبعضها ما يزال موجوداً ، والبعض انتهى ، وحل محله تقاليد أخرى .

٥ - (الوسمية - عام ١٩٨٥م) لعبد العزيز مشري :

" إحدى الروايات المكتملة في بنائها الروائي لاسيما من جانب اهتمامها بالفنية المكانية التي وظفت المكان وجعلت منه ركناً له دوره الأساسي لا يقل عن دور البطل . وفيها التقط بعض نبض التغيير الذي اهتزت له البنية الاجتماعية ، وبدأت تغادر انسجامها وتمائلها ، إذ بدأت بوادر التحول منذ أن ظهر مشروع الطريق الذي يربط بين المدينة والقرية إلى حيز الوجود وشرع في تغيير ملامح فيها.. " (٢) .

١- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص ٣٠٨ .

٢- محمد صالح الشنطي : فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، ط٢ ، ٢٠٠٣م ، ص ١٤٩ .

ومثل روايات رجاء عالم (٤/ صفر - عام ١٩٨٧م ، وطريق الحرير - عام ١٩٩٥م)
وأعمال عبد الله الجفري (جزء من حلم - عام ١٩٨٤م) (وغداً أنسى - عام ١٩٨٠م ، ولا
عاش قلبي - عام ١٩٨٩م - لأمل شطا) ، (وأعمال غالب حمزة أبو الفرج مثل غرباء بلا وطن
- عام ١٩٨١م ، ورواية الشياطين الحمر - عام ١٩٧٨م) . وغيرها من الروايات التي صدرت
في المملكة وقد اعتنى مؤلفوها بجمالية المكان . وقد تميزت الرواية السعودية بالتحول من بيئة
لأخرى سواء أكان هذا التحول من المدينة إلى القرية أم العكس ، أو كان من منطقة إلى أخرى
نسبة لزيادة الرقعة المكانية بفعل التطور الحضاري ، حتى إنها انتقلت لتكون رحابة العالم مسرحاً
لها ، فجعلت من الدول العربية لاسيما مصر ، بيئة تستلهم جمالياتها مثل روايات (البعث - عام
١٩٤٨م ، ثمن التضحية - عام ١٩٥٩م ، لا لم يعد حتماً - عام ١٩٨٦م ، السنيورة - عام
١٩٨٠م) . والكثير من الروايات عنيت ببينات أجنبية ، فقد درج بعض الكتاب على الانتقال
بشخصهم إلى البينات الأوروبية والأمريكية . مثلما نجد بعض الروائيين لا يهتمون بالإشارات
المكانية في بعض رواياتهم ، إلا من حيث هي مسرح تقدم فيه أدوار الشخص الروائية . كما
أهمل بعض المؤلفين تسمية المكان ومنهم لا يشيرون إليه بأية إشارة ، مثل أكثر روايات عبد
الرحمن منيف ، إذ لا ندري شيئاً عن حقيقة البيئة التي دارت فيها الحوادث في روايته ،
(الأشجار واغتيال مرزوق - عام ١٩٨٣م) (وشرق المتوسط - عام ١٩٨٥م) كما أن عنوان
الرواية الثانية (غانم مجهول) غير واضح المعالم.^(١) وإن كان مافيه من دلالات تتسحب على
جُلّ البينات والأماكن العربية التي تقع إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط .
وفي الفصل القادم سوف نحاول رصد المكان من حيث إنه ينقسم إلى أماكن مفتوحة
ومغلقة ومقدسة وما إلى ذلك ، متخذين في دراستنا التحليلية بعض الروايات التي صدرت في
فترات متعاقبة تنتمي إلى اهتمام كاتبها بالجمالية المكانية كنموذج إيضاحي لما وصلت إليه
الرواية في المملكة العربية السعودية .

١- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٥م
ص ٢٩٩ .

الفصل الثاني :

أولاً : الأمكنة المفتوحة (الصحراء ، البحر ، المدينة ، الأماكن المقدسة)

ثانياً : الأمكنة المغلقة (البيت ، السجن ، المقهى ، القصر)

أولاً : الأمكنة المفتوحة :

لقد مرت الرواية السعودية منذ بواكير إنتاجها الأول من جيل الرواد وحتى إعداد هذا البحث ، ولاسيما في السنوات الأخيرة بتحويلات كبرى- وربما كان ذلك لأول مرة في تاريخها - إذ أخذت تسير في خط مواز للتطورات التي تكين لهذا النوع من النثر الأدبي في العالم أجمع . فمن "الرواية الجديدة" وتحطيمها لمسلمات السرد التقليدية إلي أحدث تجارب ما بعد الحداثة، أستطاع الفن الروائي معالجة تلك التطورات ، وقدم في هذا المجال إسهامات لها أهميتها وإن أغفل عنها في بعض الأحيان ، وقد أستطاع الكتاب السعوديون القيام بذلك عن طريق تجديداتهم الأدبية في إطار ثقافتهم المتميزة . وأنتجوا أعمالاً روائية ناضجة فنياً لما تميزت به من اهتمام بالبنية الروائية الحديثة وكان اهتمامهم واضحاً بالشعرية المكانية ، فرواياتهم تعد روايات غائبة نقدية ، غايتها توصيل المكان بجمالياته إلى الجيل الذي لم يشهد الأرض ويدرك عمق المكان ، وأبعاده المادية ، والفيزيائية ، والمقالية ، بقصد توثيقه في الذاكرة ، أضف إلى ذلك إيلاخ القارئ بحقيقة المكان ، وساكنيه ، والمعاناة ، والهموم التي عاشها إنسان تلك الفترة ، فضلاً عن الدلالة التي يحملها المكان سواء على الصعيد التاريخي ، أو الاجتماعي ، أو الأخلاقي، أو القيمي.

أضف إلى ذلك الجانب النقدي الذي نجده من خلال تحريك الروائي لشخصه ، وأفعالها ، والعلاقات القائمة بينها ، والدلالات التي تنتجها ، والذي يريد أن يقوله في أطروحته الأيديولوجية التي تنبذ السلبية من الأمة - في كل الأصعدة - فهي تشكل عاملاً من عوامل التخلف والانحسار الفكري للأمة العربية عامة وللشعرية السعودية على وجه الخصوص ، متعرضاً لما يعانیه الإنسان من هضم لحقوقهم ، وتجاهل لقضاياهم ، ومسح لشخصياتهم ، وطمس لهويتهم ، ولاسيما المرأة التي عانت الأمرين حتى استطاعت في نهاية الأمر بلوغ بعض مآربها التي ما تزال تنشدها كالتعليم ، والعمل ، والحق في تقرير مصيرها في اختيار شريك حياتها الذي يمثل حقها الشرعي الذي طمسته تلك العادات والتقاليد البائدة التي كانت تطبق على رقبتها حتى كادت أن تزهد معها حقوقها . لذا نجد المرأة عندما تكتب متعرضة لقضاياها تلجأ إلى بيئة خارجية تمارس فيها حرياتنا بعيداً عن سلطان العرف والقبيلة.

واهتمت الدراسات النقدية الحديثة بتحليل عناصر الخطاب السردية التي يعد المكان أبرزها باعتباره ملفوظاً حكائياً قائم الذات ، وعنصراً من العناصر الفنية الأخرى المكتملة للنص

الحكائي ، وربما كان المكان أهم تلك العناصر الجمالية في الرواية المعاصرة الحديثة ، مما جعل النقاد والروائيين ، على حد سواء ، يجعلونه نصب دراساتهم وتقصي ما به من شعرية لا غنى للرواية عنها.

ومن السهل أن يدرك الدارسون أن الفضاءات الروائية، والمكانية، والزمانية، والشخص، والأفكار، هي فضاءات متعددة، ومتنوعة " فإذا كان المكان وعاء مغلَقاً عما فيه كان زمانه مبهماً وإذا كان المكان مفتوحاً يشي بما فيه كان زمانه ديمومة وإذا حل في المكان جسم فاعل فمكانه فيما يفعله وزمانه محدود متناهٍ بتناهي فعله، وإذا حل في المكان جسم منفعل، فمكانه فيما ينفع به، وزمانه يتجدد أو ينتهي تبعاً لاستمرار الانفعال أو انقطاعه"^(١) من هنا لا يمكننا التحدث عن مكان واحد في الرواية بل إن صورة المكان الواحد تتنوع بحسب زاوية النظر التي أخذت منها تلك الصورة.

وتطمح هذه الدراسة لاختبار المكان السعودي من خلال مجموعة من الروايات التي أنتجت خلال فترات نمو النص الحكائي بالمملكة، والوقوف على جماليات المكان وشاعريته. فإذا كانت الدراسات البسيطة، قد لامست المكان باعتباره عاملاً فاعلاً في تشكيل البنيات الذهنية، والخصائص الجنسية، ورامت دراسته من منظور علمي فعددت أشكاله صحراء.... بحر.... مدينة.... جسد.... وأماكن مقدسة وأخرى معادية محاولة إيجاد مبادئ للتحويل الاجتماعي، والأخلاقي، فإن الجمالية استقطبت "المكان" لتتقب فيه عن مشكلات الفضاء المادية والمعنوية. حتى إن الروائيين اهتموا بالوصف والتصوير لنقل المكان الاجتماعي وأشكاله، إلى فضاء اللغة حتى غدت رواياتنا المعاصرة "سجوناً" و "أفاقاً" و "محتشدات حياتية" احتوتها جماليات النص جاعلة منها أيقونات مملوءة بكل ما تجيش بها عواطفهم من حنين وذكريات. وبما أن الصحراء هي أهم ما يلاحظ في المكان السعودي فسنبداً دراستنا هذه بالنظر إلى كيفية ظهورها من خلال النصوص الروائية.

١- محمد السرخيني : مقارنة النص الشعري بالمنهج المقولاتي، مجلة علامات، المجلد ٨، الجزء ٣١، فبراير، ١٩٩٩م.

الصحراء :

"إن صحراء الجزيرة العربية أهم من أن تكون مجرد مكان . إنها رمز للإسلام والعروبة الذي غالباً ما لا نتمثله إلا وهي حاضرة معه . وكأنها جزء منه . ولذلك غالباً ما نحملها نفس ما نحمله به من الدلالات من ذلك أنها تقتزن مثله في الوجدان العربي ، بقصة الفتح . وهو فتح سريع خاطف ، واسع ، حتى لكأنه من صنع الخوارق والمعجزات . وقد انبهر له العرب أنفسهم . ورأوا فيه النموذج الأعلى للثورة . فراحوا يمتنون النفس بتكراره.... والصحراء تقتزن أيضاً بالعقيدة الإسلامية التي استجابت لأهم حاجات العرب الوجدانية والروحية . ووسمت حياتهم الاجتماعية والفكرية... وتتجح في دفع ما يتهمها به الفكر الحديث من أنها هي المسئولة عن التخلف العربي . ومعنى ذلك إن صورة الصحراء تتراوح بين الناصع المجيد من الإسلام . ويمثله الفتح والأقل ، القائم منه ويمثله الفكر الديني خاصة أو الفكر الأخذ بالدين عامة"^(١).

وتشكل الصحراء العربية المساحة الكبرى من الخليج العربي عامة ، والجزء الأكبر من مساحة المملكة العربية السعودية ، الشيء الذي حدا بتكوّن الحياة على أطرافها ، في الخلجان والبحار وسفوح الجبال لتوفر مقومات الحياة عليها عكس ما للصحراء من جدد وجفاف.

" كما أن الصحراء تفرض على إنسانها العائش فيها سمة بدوية أثرت في فكره السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي ، وولدت فيه إشكالية البداوة التي يرى كثير من النقاد أنها سبب تخلف الإنسان العربي ، فضلاً عن إشكالية "الصحراء" مما ولد في ذلك الإنسان أمراضاً أخرى مثل القطيعة المزمّنة بين العرب أنفسهم ، وبين المجتمع المحيط بهم ، وقطيعة بين المجتمع الديني والمديني ، بينهم والحضارة ، والسياسة "^(٢) " السبب الذي جعل المفكر البحريني محمد جابر الأنصاري يذهب في القول "إن الفراغات الصحراوية قد منعت نشوء نسيج حياتي عضوي لمجتمع واحد ، ولدولة واحدة ثابتة متواصلة من القدم إلى اليوم ، وإنها معوقات ناجمة أصلاً عن الطبيعة الصحراوية"^(٣).

فالصحراء مفازات مهلكة وربع خال لا يجاز ، ومجهول تحكي عنه أساطير الجن والشياطين ، فالصحراء هي التي نسجت سلوكيات ساكنها لإظهار قوتها كطبيعة أولاً وكملهمة لهم

١- عبد الصمد زايد : المكان في الرواية العربية ، الصورة والدلالة ، دار محمد علي للنشر ، تونس ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص ١٣٤.

٢- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ... ، مرجع سابق ، ص ٤٣.

٣- المصدر نفسه ، ص ٤٣.

ثانياً "ولعل قيمة الكرم كسلوك عربي استمدت من الصحراء ، والوفاء بالعهد ونجدة المظلوم ، وكذلك من جهة أخرى قطع الطريق والسلب والنهب ، والعدوان الدائم ، والصراع المستمر ، والإسراع إلى الشر، كل ذلك في أجواء صحراوية يكمل الإنسان في ذهنه ما لم يتمكن من استبصاره بعينه . فنشأت الأساطير وحكايات الجن ، التي تدعو إلى صفاء الرؤية ، والاستهداء بالنجوم ، وتجلي كل ذلك في شعرهم ، وفي وصف رحلاتهم ، ومن تكريسهم الشعر الكثير للناقة وسيلتهم الوحيدة والهامة للتعامل مع الصحراء"^(١).

" وفي مطلع القرن العشرين تفجر النفط في الصحراء العربية و بدأت معالم الحياة تغير عليها وأخذت تحولات جوهرية تتشكل وتطرا ، ومتغيرات معقدة صارت تتشابك يوماً بعد يوم ، وأخذت ظواهر تفرض نفسها ، فتغيرت أنماط الحياة الاجتماعية ، وتوارت معها القيم النبيلة ، لتحل محلها قيم جديدة وبدأت تظهر مجتمعات جديدة كانت تعرف بأنسابها وشرفها ، لتصبح على أسس اقتصادية ومهنية ، طبقات قسمت المجتمع إلى رجال أعمال ، وتجار وموظفين وعمال ، أبدلوا الخيمة العربية التي كانت تفتح بابها على مصراعيه لضيف النهار وتوقد نارها ليلا ليهتدي إليها سائر الليل ، وحولها تتبجح كلابها لتسمع البعيد أن أهلاً وسهلاً أبدلوا بمدن خرسانية صماء يحرسها حارس يحمل سلاحه في يده و كلب شرس..^(٢).

كل هذه التحولات لم تكن وليدة يوم وليلة بل كانت بطيئة وخفية. ومهما طرأت المتغيرات عليها بشطريها الجغرافي والثقافي هي مكان العربي الخاص "والمسرح المحدد لكثير من الأحداث الوثائقية ، والتاريخية ، والتخييلية الفنية"^(٣). والمخزون الشعوري والحسي للعربي السعودي . فالصحراء تبرز في المخيلة مجعاً للناقض فهي لا تسكن حيناً حتى تثور ، ولا ترضى لحظة حتى تغضب... تفرح فيتحول الكون إلى مسرح شعري رائع ، وتغضب فيكون في غضبها الهلاك والشقاء ، وهي في حالة الرضا والغضب تثير مكامن النفس وغرائزها في الحب والكره .

وبسبب خصوصية هذه العلاقة المتجذرة في عمق الإنسان وتاريخه الطويل في المنطقة ، وبسبب استقطاب الصحراء العربية للأنشطة الاقتصادية والسياسية ، والثقافية ، عربياً ،

١- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ٤٤/٤٥ .
٢- المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
٣- المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

وعالمياً ، توجهت الرواية السعودية في عدد من النماذج المتقدمة فنياً وفكرياً ، إلى الصحراء ليتجاوز المكان الروائي خاصة سكونيته السالبة ، ولينضم المكان إلى العناصر الحركية الفاعلة في تكوين بنية الرواية السعودية ، ولأن الصحراء مكان ذو خصوصية لا محدودة ، فقد شكلت فراغاً واتساعاً لا محدودين وفرضت أهميتها على من يعيشونها ، ومن هنا كانت الصحراء لغزاً ورمزاً لكل ما هو متسع ومخيف ، ورمزاً لكل ما هو خارج التصور المحدود ، وخارج التفكير . إنها الصحراء وللناس منها مواقفهم العاطفية ألفة وخلفة :

"يا صديقي الذي أحب ... يا أجمل وجه رأيت ... عشت في خاطري ودمي فترات من الوقت .. ولهذا التفتيتك .. لأرى الصحراء في عينيك .. ستبقي لي .. وسأكون لك .. يا صديقي الذي أحب.." (١)

فالصحراء هنا حنين للماضي وللأحبة ، فيها المزج الرائع بين الواقع والفتازيا ، بين الصدمة والحلم ، بين الإنسان والأرض . والصحراء فضاء يجعل كل شيء ممكناً لأنها خارجة عن القوانين ، ولا تحدها ، فهي تمنح سماتها لأبنائها في أوقات كثيرة فهي قاسية ، شرسة ، شديدة الإيهاب ، متقلبة ، تمنح الأمان والموت فنلوذ بها إن أصابتنا فاقة أو خوف كأم حنون لتمنحنا الدفء والأمان ولترضعنا طهارتها :

"عندما أخذت قدما نديم تغوص في رمال الصحراء، وتلهب شمسها جسده ... بدأ يتردد في نفسه صدي قوي .. إلى أين ؟ فهو لم يعرف طريقه .. ولم يدر إلى أين سيقوده مستقبله المجهول .. لم يتعود من قبل رمال الصحراء وغموضها .. ولم يأنف وحشة الجبال وسوادها.." (٢)

فتجيبه الصحراء كملهمة تعلمه كيف يؤدي طقوس الانتماء الأولى وكيف له أن يؤدي صلاة الخنوع واسترضائها عليها تجود بما يحب ، وكأنها ملكة تملك مقاليد أمور إنسانها فيأتي صوت حداء يحثها على القبول :

١- غالب حمزة أبو الفرج : قلوب ملت الترحال ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م ، ص ١٠٢ .
٢- فؤاد عبد الحميد عنقاوي : تراب ودماء ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ٧٧ .

" جمع - نديم - شتات نفسه وصاح بصوت عال ، أنا منك وأنت مني ... لا ذنب لي ، إن كنت لي بشرة بيضاء ، أو عيون زرقاء ... ساكون ابن الصحراء ، الابن البار"^(١).
فيجدها تحنو عليه راضية به ابناً... تفرح الصحراء فتتحول الدنيا إلى تحفة رائعة فحين تجود لا أحن ولا أرق منها فأرضها معطاء ، حيث الطبيعة الهادئة لا صخب ولا ضجيج... ثم تمنحك ثديها لترضعك طباعها ، ولتدب في أوصالك سماتها :
"وررع على ركبتيه.. وأخذ يقبل الأرض ويحثو التراب على رأسه وكأنه يستنشق عبيره لأول مرة .. ودبت في أوصاله الحيوية والنشاط.. واكتسب شجاعة وقوة .. وكلما أوغل في مسيرته وأحس بلهيب الشمس .. ازداد عناداً وإصراراً.."^(٢).
هذه هي الصحراء التي تجمع المتناقضات... الغامضة - المكشوفة ، الإحاطة - الفراغ ، الوضوح - الغموض ، العزلة - الضجيج ، الأمن - الخوف :
"ولو فكرت بالسفر للرياض فلن تصلها بسهولة وكل الذي أخشاه عليك أن تبتلعك الصحراء أو أن تقاد إلى حظيرة الرقيق وتصبح عبداً ساعتها ساموت من الكمد"^(٣).
فالخوف من قطاع الطرق والنخاسين الذي تلاشى من زمن سحيق موغل في القدم نجده ينضح في ذاكرة الصحراء التي لا تنسى ، وتخال نفسك وأنت تجوبها وكأنك في الزمن نفسه فالصحراء "المكان" وظيفتها في الرواية أن تجعلك تحس بذلك الزمن الذي لم تعيشه وتجعلك وكأنك أحد أفرادها وأنت في القرن العشرين تخاف من أن تعترض قافلتك سيارة من نوع BMW أو الكامري نخاس يمتطي صهوة فرس ضامر ، أو تخاف أن تبتلعك رمالها وتكون غذاء لها :
"الرياض مدينة بعيدة ، وساكون فريسة لصحرائها الموحشة"^(٤).
وحين يستقر به القرار ويلقي عصا ترحاله ، يتنفس الصعداء فرحاً بسلامته ، ولا يلبث أن يحس حرارة استقبالها واحتضانها له كرماً وأصالة منها :
" واستقبلتنا الرياض بصحرائها المتسعة"^(٥).

لقد حاول كثير من الروائيين وهم يصفون الصحراء كفضاء مفتوح التوقف عند الحياة المنبعثة منها وكأنها كائن لها من الخصوصية ما يجعلها وهي تلامس الوافد إليها تملؤه وتخالطه

١ - فؤاد عبدالحميد عنقاوي : تراب ودماء ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ٧٧.
٢ - المصدر نفسه ، ص ٧٨.
٣ - عبد خال : مدن تاكل العشب ، دار الساقى للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٦٩.
٤ - المصدر نفسه ، ص ١٢.
٥ - المصدر نفسه ، ص ١٢ .

وتتخلله بما لديها من مشاعر وأحاسيس ، فالصحراء حياة لا يحدها الطول ولا العرض ، وإنما خاصية كلية تحوي كل الجزئيات فيها ، إنها الأفاق الواسعة ، والامتدادات الرهيبة ، الاتساع الذي لا يحده مدى ... كيف تواجه فيه القوافل قدرها ؟ في الصحراء حيث تضل الطريق ، أو يضيع بها الدليل ، وتتطمس العلامات :

" اختفى الخط المزفت عن الأنظار، وبقيت العائلة الصغيرة تحت رحمة الشمس لا تريد أن تموت ولا تعرف المرض وكثبان من رمال حمراء لا متناهية. كل شيء أصبح بلا أبعاد أو حدود . ليس إلا الشمس والرمال وذلك الأفق الذي لا يجيء أبداً " (١).

فالصحراء مكان الضياع والفقد والموت .. لقد عمدت الرواية السعودية المعاصرة إلى استعمال الصحراء لواحد من تلك المعاني بعد إحاطتها بحالة من الضبابية وعدم التحديد، تبث فيها روائح الموت والأصوات المخيفة وكل شيء غامض وغريب .. فإذا كان الضياع مقصداً للروائي ، كانت الصحراء .. وكأن كل خطوة فيها مزلق من مزالق الهلاك والضياع والفقد المرير لاسيما إذا كان الوقت ليلاً:

" نظرت سكبنة بحر من الساكن ، ذلك الرمل الذي سيبتلع أعنى القوافل ، بحر من رمال معجونة بتلك الشياطين التي تحلب توقاً للنسل ولا تنسل لذا فإنها تنصب المهالك للمواليد من كل الأجناس حتى فراخ الطير والحيوان والهوام.." (٢).

لقد كانت الرحلة عند العربي عنوان الانعتاق ، والتحرر، يحن إليها كل حين ، وكأنها جزء أساسي من تركيبته الشخصية يألفها كل الألفة ويحن وبشفاق إليها فأخلاق الإنسان السعودي والعربي في كرمه ، وعزته ، وشجاعته ، وسماحته ، ونجدته من ثقافة الرحلة والترحال والظعن :

"بينما الجمال تمعن في شهقة أعناقها ، ترخي أهدابها الطوال بتعال على الكنتين وتفرق في تقشف وبرها ، هذا ما تمثل به لحضرة الرمال ، وشاح تتلقى به عيون أعاصير أين منها عصف هذه العيون" (٣).

١- تركي الحمد: العدامة ، دار الساقى للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٢٥٤.

٢- رجاء عالم : خاتم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ١١ .

٣- رجاء عالم : خاتم ، ص ١٠.

" تبدأ الصحراء يومها هادئة ، ولكنها سرعان ما تفقد هذه البراءة والعذرية ، وتهيج وتلتهب ، ويتساقط غضبها كسفا فتزجر رياحها معلنة عن اختفاء طرق وفقدان من يتأخر عن مسير القافلة ... " (١) فيبدأ العابرون بتلاوة حداء يعقبه حداء عليها تسكن وتهدأ :

" وارتفعت أصواتهم بالحداء الموصوف لطرده الحلكة ، بعذوبة لا يعرفها غير الفقير والحيوان تحرك الحداء ، غنيا بأصوات الأدلاء ورمل الأرض والسماء سلسبيلا يطرد الشياطين التي توجج نيرانها من القباحة والحسد والغيرة والسعادة . رفاً الحداء وغيم حول هودج - شارة - شاملا القافلة بملاكتته المجنحة " (٢).

والصحراء أحوال ، وطقوس ، وحالات ، ففي الحر تبدو وكأنها الجحيم ، وإن الإنسان يلقي فيها ما لا طاقة له به ، فتكرر زمجرتها أن ساعود ، فيتحول حوارها مع العربي :

" ثم وبغثة كان الرمل أمامنا يموج ويتحرك كتلا رملية في إيقاع جماعي تحول الرمل لبحر بلون كالح " (٣).

لترتفع الأصوات بالدعاء أن أزح عنا هذا الكرب يا الله :

" حوالينا ولا علينا ، اللهم لا حول اللهم على الضراب والآكام ومنابت الشياطين " (٤).

ولأن الصحراء امتداد لا نهائي تحس وكان هذه آخر رحلة ستقوم بها عبر هذه الصحراء اللعينة التي لا ترحم فالموت خير من تكرارها حسبنا خطاونا فيها رملة رملة فتمتد أعينك فيرجع إليك البصر خاسئا حسيرا ثم ترجع البصر فلا ترى إلا السراب :

" لم نقطع من الصحراء الكبرى غير أوردتها الضيقة وفي الوريد الواحد بعد منتصف الليل ومن بين اجتماع كئيبان المجهول والعواصف اعترضت القافلة فتاة غارقة في الشموخ والملاحة ، مكسورة بحزن. أسلمتنا نعش أبيها ، واندست بسواد صوت الحادي (٥)

أي تغيرات تتبدى على الإنسان فرح ، غضب ، انبساط ، انقباض ، رحمة ، قسوة ، شدة ، لين ، تراها في الصحراء لأنها كائن جماعي له الخواص الإنسانية نفسها . فالضال في

١- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص٥٣ .
٢- رجاء عالم : خاتم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص١٢ .
٣- رجاء عالم : خاتم ، ص ١٠٥ .
٤- رجاء عالم : خاتم ، ص ١٢ .
٥- رجاء عالم : خاتم ، ص ٢٠ .

الصحراء داخل الرواية هو ذلك الضال في الحياة، فبين لحظة وأخرى تتغير الحياة والظروف والأوضاع فمن قمة الهلاك إلى النجاة والاستقرار :

" لكن الصحراء مثل القدر يسحقك ويكتم أنفاسك حتى تحسب أنه لا أمل ، ثم فجأة يرفع كاهله عنك ويربك أجمل ما فيه " (١).

هو إحساس الروائي ذاته الذي في لحظته الروائية يرى الصحراء ذاتها في مشهد مختلف تكون فيه حنوناً رؤوفاً تقسم بيننا خيراتها :

" كل الصحراء قائمة على الإحسان وتوزيع اللقمة " (٢).

تجود حيناً بالحب المشبوب بالعاطفة فتصير مكانها الدفينة أسباباً للمتعة والترف ، والشعور بالغبطة والسرور ، والأمانى العذبة فتصير وحوشها وديعة :

" ما التنين سوى أنثى أندلسية متسريلة في برانس صحراويات ، كلما غصت بأظفرك في جلدها فاحت عرائس خشب الصندل حتى إذا تجلدت وغصت خرجت لك بحور دهن العود والنعيم للسباح .. إذ يهوي القمر في محارق لا نهائية " (٣).

" فالصحراء تتفاعل مع الظواهر الكونية الكبرى ، فهي تتفاعل مع الرياح وتتفاعل مع الشمس وتتفاعل مع الرجال وتتفاعل مع التحولات الكبيرة مع السماء والبحر وكل هذه المتجاورات الكبيرة ، تعكس الوجود الكوني في تجليات معطياته العظمي ، وفي تفاعل الإنسان نفسه داخل هذا الفضاء مع هذه المعطيات ، فالإنسان يخاف الظلام ، ويرهب المجهول ، ويخشى من اللامحدود والمطلق ، والصحراء هي هذا كله المجهول والظلام والاستيحاش الواسع " (٤).

" وليس ألد من الصحراء لحظة شروق الشمس من الأفق اللامتناهي وأنت تحتسي الشاي حول نار متأججة ونسمات من هواء الصباح الندي تداعب الوجه باغراء فتاة عذراء عرفت الحب لأول مرة " (٥).

إن أيسر السبل في التعامل مع المكان استعمله على وجه الحقيقة ، كأن يدلل على موقع معلوم ، أو مجهول ، ومن ثم يأتي نعتة مناسباً للمقام الذي استعمل من أجله ، بيد أن أساليب العرض تتفاوت جودة وحسناً بحسب السبك ، وقوة العبارة ، وبناء النسق اللغوي المصاحب له ،

١- تركي الحمد : العدامة ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٢٥٤ .

٢- رجاء عالم : طريق الحرير ، ص ٥٦ .

٣- رجاء عالم : طريق الحرير ، ص ٩ .

٤- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ... ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

٥- تركي الحمد : العدامة ، ص ٢٦٥ .

لأن انتقاء الكلمات وتوزيعها على مستويي الحضور والغياب على امتداد خطي يكون لها تأثير دلالي وصوتي وتركيبى ، كما أنها تتوزع غيابياً في شكل تداعيات للكلمة المنتمية للجدول الدلالي نفسه .

فالاقتحافية في النص الروائي لها من القيمة الفنية ما تكثف به النص وتدل عليه لأنها أولى التقنيات التي تبرز قيمة النص كعتبة ، لما لها من علاقة بينها وبين المحتوى الروائي . فعبد الرحمن منيف حين افتتح خماسيته الشهيرة "مدن الملح" (١) التيه بـ :

" إنه وادي العيون .. فجأة ، وسط الصحراء القاسية العنيدة ، تنبثق هذه البقعة الخضراء ، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء ، فهي تختلف عن كل ما حولها ، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أي صلة ، حتى ليحار الإنسان وينبهر فيندفع للتساؤل ثم العجب "كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا ؟ لكن هذا العجب يزول تدريجياً ليحل مكانه نوع من الأكبار الغامض ثم التأمل . إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها ، وتبقى هكذا عصية على أي تفسير" (٢).

" افتتاح النص باسم وادي العيون يعني في الوقت نفسه افتتاح النص الحكائي الكلي المعنون بمدن الملح ، وإن دل هذا الافتتاح على شيء فإنما يدل على أهمية وادي العيون المركزية في هذا النص .

وإن خماسية عبد الرحمن منيف " اتخذت من الأحداث المتغيرة التي جرت في الصحراء وكيفية تعامل الناس مع هذا التغيير، ولاسيما بعد تفجر البترول بها ، ومانتج عنه من الصراع الذي نشب بين العرب والأمريكان في بداية الأمر ، ثم ما لبث أن صار بين الأهالي (السكان) وشركات التنقيب ، ثم تعددت أبعاده وتفاقت ، والجدير بالذكر أن تناول منيف للصحراء لم يقتصر على المكان ، وإنما الأحداث التي جرت فوق رمالها أيضاً ، فالصحراء عنده أقل عنفاً وحرًا ورمالاً . ولم يكن المكان هو الصحراء كصحراء وإنما المكان هو منابع النفط التي تفجرت فيها وتلك الحياة الجديدة التي باتت تشق طريقها لسكان تلك المناطق .." (٣)

كما يلاحظ غياب البطولة التي ربما جعلها للمكان . وهنا نقفز بعض الأسئلة :

١- عبدالرحمن منيف ، مدن الملح : التيه ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ، والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط١٠ ، ٢٠٠٣م .
٢- عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : التيه ، ص ٩ .
٣- مرشد أحمد : المكان المنظور الفني في روايات عبدالرحمن منيف ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ٧٠ .

هل يستطيع المكان أن يقوم بدور الإيهام بالواقع حين يصور أماكن واقعية؟" ولكن هل يمكن أن يقوم المكان بدور البطولة في الرواية الجديدة؟ وهل يمكن أن تحل الأشياء محل الأشخاص في الرواية؟^(١).

استطاع منيف في رواياته ولاسيما النهايات ، ومدن الملح ، التعامل مع الصحراء من كل الزوايا تقريبا مجسداً فكرة الصحراء عمقا وشمولا.

" بدت موران في تلك الأيام المبكرة من فصل الخريف غارقة في الصمت والتأمل وكأنها لا تنتظر شيئاً ، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً أو بقية من ترقب وتري في هذا السكون حذراً مخادعاً ، إذ لا بد أن ينتهي فجأة وكأنه لم يكن"^(٢).

وإشارة افتتاحية هذا النص إلى استغراق موران في الصمت والترقب الحذر إنما يعني بأهمية المصير الذي ستؤول إليه حالها بعد أن ينتهي فجأة وكأنه لم يكن . وعلى نحو أنموذجي يبرز فضاء مدن الملح جدل المكان والحرية بأكثر صورها دقة فهو فكرة أيديولوجية لإعادة الهوية الجماعية للإنسان العربي داخل الكيان الفردي ، وتشكيله . فالمكان الفيزيقي أكثر التصاقاً بالأشخاص لإدراك الإنسان المباشر له إدراكاً يبدأ من الجسد - كفضاء أو مركز الفضاء إذ يعد الإنسان في بعض النظريات مركز الكون أو قلبه النابض و تذهب لأبعد من ذلك .

" فحين يلتفت الروائي إلى الصحراء ، لا لكي يتعمق أسرارها ، بل لكي يجعلها صورة يفجر من أبعادها أشجاناً ، ويفجر من سماتها معاناته ويجعلها مخزناً للتصوير، والتمثيل ، والتوسع في المشاعر الإنسانية ، لإنسان الصحراء أو للإنسان بشكل عام ، ففي الصحراء متسع لصور لا حدود لها ، وفي الصحراء متسع لخيالات يمكن الاتجاه بها حينما تكون الحاجة ماسة إلى كشف أو تبيين أو تعميق أو حتى يخلق في أفاق التعبير الجمالي . فلرموز الصحراء ولموتيفات تمنح الروائي قدرة على الكشف السريع والعصف الانفعالي."^(٣)

١- محمد عزام : فضاء النص الروائي ، مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، ط١، ١٩٩٦م ، ص١١٥.

٢- عبدالرحمن منيف : مدن الملح : الأخدود ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، والمركز العربي الثقافي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط١٠، ٢٠٠٣م ، ص٧.

٣- عبدالحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ...، مرجع سابق ، ص ٥٩.

وتبقى جذلية الصحراء والإنسان ، ويبقى هذا الجدار الممتد والمتجاور، والمتناقضات التي لا حل لها ولا توافق بينها ، فهي الجذب المدقع ، والعطاء الذي لا ينفد ، والحياة والحب والموت تحت برائن رمالها الكالحة :

ستمر غيوم هذا العام غير مبالية بنظراتنا إليها ، هناك في البعيد خلف الجبال السوداء ستهمي بمانها حيث لا أحد يحتاج إليه بينما نحن منسيون هنا نجالس الجذب والأشواك وسيجد الوادي نفسه يلهو برماله البيضاء الفضية ، ويضحك من حقولنا النائمة على جنباته في انتظار أن تنهض بقوائمه . لن نجد أمامنا سوى الانتظار، ونبش الأرض عليها تمدنا بقليل من حيويتها المخزونة المنسية منذ أمد^(١).

تأبي الصحراء إلا أن تكون صاحبة جبروت ، ويصعب إخضاعها عبر ذكر الحر والقحط والامتداد اللانهائي المرعب ، والتبدل ، والجنون ، وسخونة رمالها التي تجمر من عليها:

" كانت الشمس تأكل المدى بشراهة وتترك بقايا مغيبتها على الأفق أوصالاً من ألوان داكنة تغرق الكون في وحشة... وثمة رياح كسولة تهب من الجنوب فتعبث بحاجياتنا البسيطة المستقرة على سطح تلك السيارة التي تمخر في أرض رخوة بلهاث وأزيز هادر قاطعة حقولاً مرهقة تجاهد لرفع نباتاتها للأعلى .. وفي أحيان كثيرة تركض على طريق مجذبة تتأثرت على جوانبها بيوت متهاككة أقامت أودها بأخشاب شاحبة متداعية"^(٢).

فالصحراء كائن يجثم على الإنسان الخليجي عموماً ، والإنسان السعودي على وجه الخصوص في مناحي الحياة جميعها : التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والأدبية وتؤثر فيهم سلباً وإيجاباً وتحفر فيهم عميقاً في أخاديد خلفيتهم الذهنية . من هذا المنطق حين نخضع روايات المملكة العربية السعودية - لاسيما الروايات الحديثة منها - لعنصري القراءة والتفكير نقف الصحراء في وجهك شامخة شاحبة إلا من واحات وجودها لا يحدها حد وكأنها السمة التي تعرف بها الرواية السعودية الحديثة ، وكأنني بالرواية التي تخلو من جماليات الصحراء أو تفتقر إليها رواية مبتورة منبئة عن جذورها ولم تتل من الاكتمال حظها الأوفر عارية من سمة التحول الذي أصاب الرواية السعودية وأهم روايتها للنهوض بجمالية هذا الفن ..

١- عبده خال : مدن تاكل العشب ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ٦١ .

٢- المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

فالصحراء هاجس الرواية السعودية ، التي يحملها الروائيون والنقاد على عاتقهم ،
فالصحراء كفضاء لا غنى للرواية عنها فهي لم تعد رمالا وتلالا وزوبعة رياح وعواصف ، بل
أضحت في أعماق النفس تاريخ أمة ، ومكتنزا حقيقيا لثرواتها ، وفي باطنها أمانينا بمستقبل يلوح
في الأفق البعيد ، فقد كانت مملكة الصحراء وسوف تكون مملكة الصحراء ولا شيء بعدها .

البحر:

البحر هو سيد الحياة والموت ، والمكون الثاني لثقافة الإنسان السعودي بعد الصحراء فالإنسان السعودي ممتلىء بالبحر .

" ذاكرة أهل الخليج مشبعة بالبحر ، كما تشبع أسفنجة غطست في الماء ، وإذا ما عصر الإنسان الخليجي روحه ، نزل منها البحر ، الماء المالح ، الغوص ، اللؤلؤ ، السفن ، الحياة والموت . كان البحر امتدادا لوجود الإنسان في الخليج العربي وكان البحر هو مخزن الرزق وموطن الألم ، ومقبرة الهالكين من البحارة " (١).

" فالبحر والصحراء عالمان وفضاءان يتفارقان ويأتلفان في الوقت ذاته حضارة الرمل في مواجهة حضارة الماء والانغلاق بمقابل الانفتاح . فضاءان يغرزان عقليتين مختلفتين بيد أن هذين الفضاءين يتداخلان ويتشابكان.. " (٢) لذا فالبنية الفضائية للمشهد السعودي لا تكتمل ما لم تتعرض الدراسة للبحر كفضاء استراتيجي في فضاء المملكة ، وبما يضيف عليها من جماليات لا غنى للروائيين عنها. إذ لا يمكن أن نتصور الرواية السعودية دون بحر ، فالبحر في الرواية السعودية له نكهة خاصة ودلالات وأبعاد رمزية ، فيزيقية ، وميتافيزيقية ، تسبغ شعرية مميزة على الفضاء الروائي ، فالبحر يشغل حيزاً شاسعاً من نسيج الذاكرة للإنسان السعودي ليغدو البحر بعداً من أبعادها . لما له من مساهمة في تشكيل وعيها وتكامله ونضجه فالبحر متسع رحب بلا نهاية ويشكل أكثر القوي الكونية إجلالاً وجمالاً ومهابة ، وهو ظاهرة وجودية عظيمة ، وله في حياة الإنسان السعودي تقاطعات حياتية تتعدد دلالاتها في ثنائيات عدة ، فالبحر فضاء رحب مفتوح ومغلق مجهول غامض في الوقت نفسه . ففي البحر الرزق ، والغنى ، والكنوز الثمينة والسفن المحملة بالأسماك ، والانبساط في وجوه الصيادين وهم يحمدون الله على ما أنعم عليهم به من نعمة . ويقابل ذلك الموت والهلاك واسماك القرش وربما يلتقي الحبيبان على البحر في لحظة غروب جميلة ، وباستعمال المكان (البحر) في الفضاء الروائي يعمل الروائي على إغناء فضائه وتعقيد بنيته ، " فالبحر يشكل حيزاً وفعلاً روائياً هاماً لهذا كان التعامل معه يمتاز

١- عبد الحميد المحادين ، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ٧٣ .
٢- خالد حسين حسين : شعرية المكان في الرواية الجديدة ، كتاب الرياض ، العدد ٨٣ ، أكتوبر ، ٢٠٠٠م ، ص ٣٤٤/٣٤٥ .

وكلما كان إحساس الروائي بعمق المرجعية التي يركن إليها في استحضاره المكان (البحر) تعددت في يده إمكانيات الاستعمال ، وأسعفته القدرة الإبداعية على المزج والتركيب بين العناصر التي يؤلف منها تركيبته الفضائية :

" من هنا تظهر مدينة جازان تستلم لخدرها والبحر يورجج بيوتها الواقفة على الشط بينما أشرعة قواربه تخفق كقلب رنا لعشيقه طال بها الهجر فتغنى بموال جارح تناثرت لوعته وفضحته عيون الصنب"^(١).

إن المشهد المكاني هنا ملئ بالصور التي تتدفق في الذاكرة ، فصورة جازان ، تلك المدينة التي تجلس وكأنها عروس تستمع لتراتيل البحر، وحولها تتراقص القوارب الصغيرة ، والبيوت المتراسة ، وكأنها تردد أغنية غزلية . تدل على أدراك الروائيين السعوديين ما للبحر من سحر وجمال ، فراحوا يصفونه بالمنعة والعتاوة ، وفي هذه الحال يعتمد الروائي على أسلوب التضخيم مقابل التهوين حتى يغدو البحر حقاً نهاية للوجود المكاني :

" والبحر هذا المارد الذي صنع امجاد بضع منات من أغنيات العالم يرقد في هدوء ... يفلق على راحته ضجيج البواخر واليخوت التي انتشرت في كثير من زواياه"^(٢).

استعداداً لرحلة صيد جديدة على مشارف غدٍ جديد ، ويبدو البحر في هذه الحال هادئاً وعطوفاً قرب السواحل يغري بركوبه حتى إذا ما أمنت السفن والقوارب وتعمقت في وسطه ، هاج ، وماج ، واضطرب ، وعصفت رياحه الهوجاء لتعذب فريستها قبل التهامها :

"هاج البحر وارتفعت أمواجه وأصبحت السفينة ريشة في مهب الريح وحاول البحارة السيطرة على السفينة ولكن البحر كان أقوى والأمواج كانت أعلى من السفينة"^(٣).

ويولد البحر عند بعض الناس شعوراً بالخوف الشديد ، ولأن البحر يتصف بالغدر أحجم عنه بعضهم رهبة منه :

" نحن لا نركب البحر .. (لكن القرشي تدخل متوسطاً) : أما من سبيل سوى البحر"^(٤).

١- عبده خال : الطين : دار الساقى للطباعة والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٧٢ .
٢- غالب حمزة أبو الفرج : وجوه بلا مكياج ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م ، ص ٢٨ .
٣- عبد الكريم محمود الخطيب : حارة البحارة ، دار الخطيب للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، ص ٢١ .
٤- رجاء عالم : طريق الحرير ، ص ١٥٣ .

" لقد أودت المياه المالحة والقمر الساطع بحياة أجمل زهرة عرفتها"^(١).

هكذا البحر يجر فريسته إلى عرضه إغراءً منه بالمزيد من الجمال ، والبهاء ، والثروة ، والنعم ، حتى إذا ما استجيب لطلبه تلاعب بمن وقع تحت تأثير إغرائه فهو يتلاعب بالسفن والقوارب التي أضلها الهدوء وتجده يتسلي بها قبل الانقراض عليها :

" أصبحت كالريشة وسط البحر يتلاعب بها الموج يمنة ويسرة"^(٢).

وكانت بعض الدراسات الواقعية قد رأت في البحر شيئاً يتحدد وجوده في إطار الواقع بين المواصفات الخارجية التي تمتلكها الأشياء وبين ما هو ظاهر على سطحه وعمقه إذا ما تعمقنا في قراره باطنه فهو أم أمثالنا يأكل فيه القوي الضعيف ويفترسه :

" وأنسلت من مكاتها وبقي هو في مكانه يرمق الموج.. وأسماك البحر وهي تعندي

بعضها على بعضها الآخر"^(٣).

" إن الثنائية بين الشاطئ والبحر، تثير جدلية في نفوس البحارة وسكان تلك الأمكنة ، فهناك هذه العلاقة التي لا يمكن فصلها بين الشيطان والبحار ، وهما منذ فجر الخليقة يتبادلان الهمس ، ويتبادلان الوجود الضروري لكل منهما ، فالبحر ليس شراً كاملاً وليس بهلاك مستمر ، وجود البحر حتى يوصف كريمنا بالبحر - هو البحر - فالبحر قائم في النفوس ومتجذر فيها ، رغبة ، ورهبة ، حباً وبغضاً ، وقد يحب الناس أعداءهم وقد نحب الناس القاسين معنا ، إذا ارتبطت علاقتنا معهم بالحياة ذاتها.."^(٤).

" يعطى حتى لتظنه البحر جوداً"^(٥).

فكريم كرماً لا يختلف فيه اثنان ، كريم لمن قصده ليغتم ، وكريم لمن قصده لينعم بالهدوء وراحة البال فهو يمنح العاشقين لحظة تذيقهم لذة الشعور بالحب :

" يقبل البحر أقدام الشاطئ في حنان ويسامر الناس كل الناس الوافدين إلى هذه المنطقة

من جميع أنحاء العالم طوال الليل يأكلون ويشربون ويسبحون تحت ضوء القمر الحالم"^(٦).

١- غالب حمزه أبو الفرج : قلوب ملت الترحال ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥ م ، ص١٢٦.

٢- فؤاد عبد الحميد عنقاوي : لا ظل تحت الجبل ، تهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، ط١ ، ١٩٨٠ م ، ص١٥٧.

٣- غالب حمزه أبو الفرج : وجوه بلا مكياج ، ص ٣٣.

٤- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ...، مرجع سابق ، ص٨٤/٨٣.

٥- عصام محمد خوقير : السكر المر ، نادي جدة الأدبي ، ط١ ، ١٩٩٢ م ، ص ٣٩.

٦- غالب حمزه أبو الفرج : وجوه بلا مكياج ، ص ٣٨.

فحين يغدر البحر بناسه يتجرع البحارة تلك القصص التي أودت بحياة إخوانهم ، وكيف صارعوا الموج العاتي ، فلم يستطيعوا أن يغلبوه ، متمنين أن لا يلاقوا المصير نفسه ، ولكن يبقى التوجس والخوف يُنقصان فرحة البحارة بجمال البحر، لتكون حياة العشاق على البر مثلها في البحر يظل الخوف مما تأتي به الحياة أمراً يكدر صفو العيش :

" أعيش أنا وهي تحت أعماق الصبر.. سمكتان تائهتان في بحر الأشواق الصاخبة يلفنا الخوف والليل والبرق والرعد والمطر...." (١).

مما يلفت الانتباه أن المكان (البحر) قدم في مشهد مليئ بالحركة ، ولا شك في أن هذا المشهد سيتكرر مرات ومرات عديدة في حياة الإنسان في البحر، ويكتسب جماليات من خلال تشابك جدلية البحر ، واختلاج المشاعر الشوق والحب ، التي تتحرك في النفس بما يمثلها من حركة البحر، من مد وجزر، واصطفاق الأمواج :

" وهذا المد والجزر من موجك ، ومن عمق بحرك إلى شاطئني: يكسر أحلامي ويلقي بها وشلاً وأصداف فارغة" (٢).

فحركة المد والجزر التي تمثلها حياة الإنسان بين الفرح ، و الترح وبين الانبساط ، والانعكاس ، و التردد بين القبول والرفض ، ثم لا نلبث أن نجد ما اخترناه من مصير كالأصداف الفارغة التي أصبحت بلا قيمة . والملاحظ أنّ هنا سمة مخالطة يؤديها النص ليسوق دلالة تتحرك على تخوم التردد، والتساؤل بين الرغبة في الرسو، ورغبة مضادة تتشد الإبحار ، كما أن حركة الدلالة النصية تشاكل حركتي المد والجزر . فالبحر يجمع بين الكبرياء والتواضع ، بين الموت والحياة ، البشاعة والجمال ، صفات اخبروا بها البحارة الذين يشاهدون في البحر ما لم يشاهد من الشاطئ :

" وأصبح كل من في السفينة في عداد الغرقى الذين ابتلعهم البحر..... فهكذا هو البحر إذا غضب لا يرحم " (٣).

نعم إذا غضب البحر لا يرحم ولا يحسب حساب أحد ، فهو قد يودي بحياة أجمل الناس وأعزهم علينا ، وقد يخلصنا من الأشرار والظلمة :

١- عبد الله سعيد جمعان الزهراني : ليلة عرس نادبة ، نادي الطنطاف الأدبي ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ٣٩ .
٢- عبد الله عبد الرحمن الجفري : أيام معها ، دار الساقى للنشر و التوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ١٨١ .
٣- عبد الكريم محمود الخطيب : حي البحارة ، ص ٢١ .

فالبحر شفاء للمكتئبين وأمان للخائفين والمتربص بهم :

" مكث يتأمل البحر.. أحسّ به يغسل أشياء كثيرة بداخله"^(١).

فالبحر يجلو صدأ الحياة الذي يتعلق بالنفس ويعيد لها نضارتها وبهاءها ولعله مستودع

تخزن به كل شيء ، ونودعه بعض اسرارنا فيلوذ بالصمت ويحفظها :

" أخرج الصندوق وقذف ما به في جوف البحر فابتلعتة الأمواج.. وأحس بأن شيئاً

ثقيلاً كان يجسم على صدره فانزاح"^(٢).

يجد الدارس لجماليات المكان في الرواية السعودية الحديثة عامة ، والبيئة البحرية

خاصة ، اسم الروائي غالب حمزة أبو الفرج ، الذي أحسبه واحداً من الذين برعوا في التعامل مع

البحر من جلّ الاتجاهات ، فبريشته الجميلة رسم من البحر فضاءات أثمرت خيراً على رواياته ،

وأنت تقرؤها فتحس بطعمها المالح وورقها الرطب المبتل بماء البحر :

" عندما أذهب إلى البحر مع أسرتي أحس بأن هذا الغادر الكبير أشبه ما يكون

بالرجل فهو تارة هادئ ودود خيراً إلى أبعد الحدود .. يمنح الثراء والنماء لكل من يقصده ،

ويسعى إليه ، وتارة قوي ، عنيد غادر، يقضي على ضحاياه ويدفنهم في أعماقه . وهو في كل

حالاته صامت مع أنه لا تهدأ أمواجه ، ولا حيواناته .. ومع ذلك فإن هذا البحر الذي أحب أن

أراه من شرفة بيتي بزرقته المحببة إلى نفسي هو الذي يهينى القوة لأن أقف في وجه الضعف

النفسي الذي يراودني في بعض الأحيان مما يجعلني أفهم معنى أن أكون امرأة تعرف طريقها

في الحياة"^(٣).

فالبحر معلم يهب القوة والإقدام ، ويحفر في نفس مجاوره أو مرتاده بعض صفاته ...

الهدوء والسكون والكرم والصلابة والاضطراب والقلق والغدر فيكون الإنسان مثله بل وقد يتعداه

في بعض الأحيان :

" في آخر مرة ذهبت إلى شاطئ البحر شعرت بأنني أقوى منه .. نظرت إلى أمواجه

التي تتلاحق وأحسست بأن كل موجة بحد ذاتها أشبه برجل يلاحق الموجة الأخرى دون أن

يصل إلى أهدافه إلا عندما تكبر هذه الموجات على جوانب الشاطئ الكبير"^(٤).

١- عبدالله سعيد الزهراني : ليلة عرس نادبة ، نادي الطائف الأدبي ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ٧٥.

٢- المصدر نفسه ، ص ٧٥.

٣- غالب حمزة أبو الفرج : سنوات معه ، المجموعة الإعلامية للنشر والتوزيع ، جدة ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص ٤٨.

٤- المصدر نفسه ، ص ٤٩.

فالروائي أبو الفرج في مجموعة رواياته قارب البحر ودخل في أعماقه وألتقط رموزه ، ودلالاتها النفسية ، ووصفها في أكثر من رواية ، ولعل قوة علاقته وتواشجه مع البحر قد شكل في رواياته فضاءً له حضور كبير، لاسيما (وجوه بلا مكياج - عام ١٩٨٣ م)، (وقلوب ملئت الترحال - عام ١٩٨٥ م)، (وسنوات معه - عام ١٩٨٧ م) ، على أن البحر اتخذ موقعاً مميزاً في الروايات السعودية الحديثة ، ولفت انتباه كثير من الروائيين لجمالياته ، وشعريته الغنية ، مما يضيف على الرواية سمة تميزها عما سواها ، فقد ألف الناس البحر رغم ما يخلفه من روائح كريهة ، وجثث نتنة لم تذهب بما له من جمال وبهاء :

" على ساحل البحر في الدمام كانت اللقاءات تتم ، فالمكان هناك أهدأ ، بعيداً عن الناس والضجة رغم الرائحة الكريهة المنبعثة منه حيث تمتزج رائحته في مثل هذا الوقت من السنة بروائح مخلفات الناس وبقاياهم ، ولكن الإنسان يعتاد عليها ويبقى البحر بجماله على رغم كل شيء" (١).

لقد أدرك الروائيون السعوديون منذ بداية ظهور الرواية الحديثة أنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوا البحر بوصفه مكاناً لما وجود به لهم في حياتهم فهو جزء منه ، وليس غريباً أن يكون البحر ممثلاً لتجربة العطاء والمنع ، الحياة والموت ، ومهما يكن من تفسير نسوقه للبحر وظاهرته الجمالية في الأدب السعودي عامة والرواية على وجه الخصوص فإنه يبقى مكاناً جغرافياً واقعياً يعبر عن حياة عظيمة داخله وخارجه :

" على مشارف مدينة جازان دببت الحماسة في أوصال حماري المتهاك ، فقد لاح له ماء البحر من بعد فنشط وتمددت في عروقه الحيوية ونهق مراراً وهو يدعو عدو الكلاب" (٢).

فالبحر يعطي معنى الحياة ويلقي بالثقة والسكينة على نفوس البشر، والحيوان (الحمار) نشط ودببت الحياة في أوصاله عندما لاح له البحر . غير أن الأشجار تعني الحنان والاحتواء من الهاجرة والملاذ والأصالة والجذور الضاربة في عمق الأرض عجزت أن تكفل الحياة تحتها ، فلولا البحر وأمواجه لهجرت الحياة :

" حتى إذا ما وصلا الفيلا الصغيرة التي تربض بين أحضان الأشجار الكبيرة كانت هناك الأمواج تهدر في المكان تمنحه شيئاً من الثقة بتواجد الحياة ونشاطها على الأرض" (٣).

١- تركي الحمد : العدامة ، دار الساقى للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ م ، ص ٢٠١ .

٢- عبده خال : الطين ، ص ١٧٢ .

٣- غالب حمزة أبو الفرج : وجوه بلا مكياج ، ص ١٥ .

ومن الروائيين الذين جاءت أعمالهم غنية بالفضاء البحري عبده خال : (الموت يمر من هنا - عام ١٩٩٥ م) و (مدن تأكل العشب - عام ١٩٩٨ م) و (الطين - عام ٢٠٠٢ م) ، حيث نجحت العناوين السابقة في الكشف عن رهاب المكان كعتبة لها أثرها الفاعل في تذوق تلك الأعمال مكانياً ولعل فضاءات (مدن تأكل العشب) فضاءات غنية بالأمكنة عموماً فضاء الصحراء ، فضاء المدينة ، فضاء القرية ، والفضاء البحري ، حيث تعرضت الرواية لبيئة البحر على طول الرواية:

" كان الميناء الصغير يستلقي بهدوء في عتمة الليل ، وثمة قوارب تحرك سكونه بقلق ... وأصوات البحارة تتعالى في محاولة لتهدئة الركاب الذين ارتموا بوسط القارب يسألون الله النجاة بعد أن رأوا في السماء أضواء تومض من بعيد ، وقد صرخ بهم الناخوذة مراراً أمراً إياهم بالتزام الصمت وترك اللجاجة ، وأنقلب على بحارته لا عناً وشاتماً حين لمحهم يرفعون الأشرعة ، بغباتهم ستصينا قبلة لا محالة وقفز لمقدمة المركب صانحاً بهم : أنزلوا الأشرعة وجدفوا بكل قواكم . فأزداد ارتباك الركاب وتصايحت النسوة ، وأخذ بعضهن يتحسرن مغادرتهن قراهن ومدنهن ، فنهرن الناخوذة وأقسم على قذف من يرتفع صوتها طعماً للبحر فسكتن بينما ظل الرجال يعلقون أبصارهم في تلك السماء العمياء"^(١).

إنها معاناة البحارة ، وراكبي الموج يوماً.. تجدر الإشارة إلى أن لغة خال تتجح في إغناء هذه اللوحة البصرية / الوصفية بالدقة والتفاصيل التي توهم بواقعية المكان ، وتضفي دينامية ، وبعداً روائياً على كلية العمل الروائي عموماً وجماليات المكان على درجة الخصوص : " كان الأصيل يستأذن في الدخول إلى مدينة جدة التي نشطت ، وأسترسلت ضفائرها على الشاطئ الطويل ووزعت مفاتها بين أزقتها الملتوية . كنت أشم رائحة بحرهما فتذكرني بالمراكب المهاجرة على الدوام"^(٢).

" هذا الاتساع اللامحدود للبحر بألوانه وحركته ، وسقوط أشعة الشمس عليه ، وهو بين مد وجزر ، والمدن حوله من بعيد ومرتفعة المباني كالأشرعة ، هذا كله يدخل الإنسان في حالة من الغموض ، والرحيل والاحتواء ، والأمل ، والتعري ، والانحصار .."^(٣) هذا هو عطاء البحر لمن يحبه ، وهو يبدو أحياناً :

١- عبده خال : مدن تأكل العشب ، دار الساقى للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ م ، ص ٢٣٣ .

٢- المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ .

٣- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ... ، مرجع سابق ، ص ٧٧ .

" البحر هادئ والناس لا يتزاحمون عنده إلا يومي الخميس والجمعة.. حتى الشمس تفرش وجه البحر، دافئة، دون حرارتها القانظة.. تنعكس أشعتها فوق صفحة الماء كنشارة فضة.. تختال في أعماق البحر كزورق من زئبق. وأنطلقت معك إلى المياه نتسابق نتضاحك ، ولكنني أفر من بين يديك وأتعب بسرعة لتحتويني ، أو كائنني أقفل ذلك طائعة لئلا أبتعد عنك وقتاً أطول"^(١).

" ولكن البحر ليس دائماً عنوان انكفاء على الذات ، وارتداد إلى النفس ، وانشداد إلى الجسم ، وانحباس في الفضاء الشخصي الباطني . وما يحدثه من حركة تتجه من الخارج إلى الداخل يمكن أن تنعكس لتدفع بالفكر إلى الضرب في أوساع الكون . وتناول ظاهرة الحياة في كل مداها الزمني . وكل امتداداتها والتعلق بروح الكشف والرؤية والانسياق إلى التأمل في المنزلة البشرية ، والبحر قادح لمثل هذا النشاط الوجداني ومحرك الذي يقدر بكل تلك النشاطات الوجدانية جيداً لها . فما اختزنته الثقافات من دلالات مشحونة بمعاني الأسفار البطولية الطويلة القاسية ، والمغامرات الجريئة الرائدة ، والأسرار الرهيبة الغامضة ، وصور الجزر الغريبة الرائعة ، والثروات الأسطورية الأخاذة ، مما لا يقوي عليه إلا الأبطال وأنصاف الآلهة. لذلك استوى البحر رمزاً رئيساً لبعض أعمق أحلامنا وأشدّها ألقا وسحراً"^(٢).

ثمة تشابه بين البحر والصحراء من حيث أنهما:

" والبحر يا صاحب السمو ليس المياه والزرقة والأمواج ، إنه فلسفة كاملة ، تبدأ بالخوف ثم التأمل وأخيراً بالتواصل . والتواصل يشكل قاعدة المثلث ، لأن الصحراء تشترك مع البحر في الصفتين الأخريين ، إذ بمقدار ما تثيره الصحراء من الخوف في حالات معينة ، فإنها بعد أن يزول الخوف ، تحمل الإنسان على التفكير والتأمل ، وتوحي له بالكثير لكنها ، مع ذلك تضع بينه وبين الآخرين سداً. وهي بمقدار ما يمكن أن تكون حماية ضد الغزاة والطامعين فإنها أيضاً سجن لقاطنين فيها ، فهي تعزلهم عن الآخرين ، وتجعلهم يولدون ويعيشون ثم يموتون وحيدون وبعيدون ... إلا في حالات قليلة ونادرة ، حين يتوافر الرجال الشجعان ، والظروف المواتية. عندها يمكن أن تكسر قضبان هذا السجن ..."^(٣).

١- عبد الله عبد الرحمن الجفري : جزء من حلم ، مطابع دار البلاد ، جدة ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ٥٤ .
٢- عبدالصمد زايد : المكان في الرواية العربية - الصورة والدلالة - مرجع سابق ، ص ٣٦٧ .
٣- عبدالرحمن منيب ، مدن الملح : بادية الظلمات ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، والمركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١٠ ، ص ١٠ .

المدينة :

هي التي تحمل في نسيجها العمراني وجملتها مركباتها خطاباً مضاعفاً ، والمدينة هي المكان الذي يستقر فيه صاحب السلطان وهي بتعبير آخر مقر السلطة الحاكمة ، وهي كلمة أرمية الأصل ، وتطلق على المركز الذي تلتف حوله بضع قرى ، وقد انتقلت الكلمة إلى العربية عندما أطلقها أول مرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) على يثرب ، ولعل تسمية "المدينة" مأخوذة من المدنية . فهي تكوين أساسي لكل الصور الحياتية لعالمنا المعاصر .

تبدأ التغيرات في المدينة على نمط الحياة العامة وعلى نمط حياة الفرد ، ثقافياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، واقتصادياً حيث مؤشرات النمو الاقتصادي عالية نسبة لاحتياجات المدينة للموارد الإنسانية السبب الذي حدا بكثير من المهاجرين من الريف إلى المدينة حتى يحسنوا من أوضاعهم المعيشية . ومن سلبيات المدينة على إنسانها أنها تضيق عليه فضائه الاجتماعي إلى حد الاحضار فيصبح الشخص أسير أعماله دون أن تكون للحياة الاجتماعية والأسرية وقت ، ليتسع عكسياً لذلك ، فضاء الغابة حيث يأكل القوي الضعيف ، ويتسع فضاء الخيانة، والمكر، والخديعة ، والأسباب التي تقوض الفضيلة ومد يد الإحسان والثقة في الغير، لتكون الرذيلة بدل الحياة الزوجية الشرعية والذي يظهر جلياً في غالبية الروايات .

" تلعب (المدينة) المكان في الرواية السعودية دوراً شديد الأهمية ، بل إنها في الأساس ، متطلب مسبق لانبثاق فن الرواية فيها ، ففي البدء كانت المدينة ومن بعد ذلك يأتي إيراد الحقائق الإبداعية الأخرى ، فالمدينة إن كانت على البحر أو في الصحراء ، في الداخل ، أو في الخارج ، عاصمة كانت أو قرية ، لها اسم أو مجرد مدينة ، تبقى ذات المدينة ولها ما تختص به من مدنية في عمقها البعيد .."^(١)

" لقد اكتسبت (المدينة) في الرواية الخليجية مكانة تختلف عن مكانتها في الروايات الأخرى ، لأن الثلاثي المكاني في الخليج ، هو البحر ، والصحراء ، والمدينة ، وأما جبروت البحر، ولا نهائية البحر، ولا محدودية الصحراء ، وأمام اتساع البحر وسطوة الصحراء ، واسطرة الوجود فيهما ، تبدو واقعية المدينة ، ومحدوديتها ، وحضورها القابل للأحاطة موضوعاً

١- عبدالحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١ ،

يغري بالتفاصيل ، ويغري بالولوج في الطبقات الخفية ، وهذا بذاته يغري الروائيون في الذهاب إلى المدن والدخول فيها ومن ثم الانتشار من موطن محدد فيها ومن مكان ضيق واتخاذ دليلاً على المدينة ، على الرغم من أنه ليس كل المدينة ، وكان هناك انفصلاً بين المدن وبين الناس من حيث الود والحب والإعجاب ، فالمدن متهمة دائماً بأنها موطن القبح البشري ، وموطن القسوة البشرية ، وموطن العنف وموطن البشاعة ، ولا سيما حين يبدأ القول عن إطلاقها وعلى إطلاقها ، دون التحديد ، ودون التقييد ودون التخيل ، المدينة كحلم مطلق غير محدد .." (١).

إذا كان هذا هو موقع (المدينة) في الأدب الخليجي عموماً ، فالمدينة في الأدب السعودي ، لاسيما أدب الرواية ، مصدر تلك الخصوصية لما لمدن المملكة من منزلة تفوق غيرها ، ففضاء المملكة العربية السعودية من حيث المدن تجده خليطاً من الأمزجة و الثقافات التي شكلت إنسانها وحفرت في كل منطقة حفريات كونت صفات ساكنها ، فجدة ، والرياض ومدن المملكة ، عدا مكة والمدينة ، حيث المدنية وحرية الحركة والاجتماعيات ، والاختلاط بالأجانب غير المسلمين ، وما تعكسه كل تلك الثقافات الأجنبية على المواطن الذي هو ابن بيئته يتأثر بالمجتمع ويؤثر به. ثم يأتي فضاء مكة والمدينة حيث لا وجود أولاً إلا لمسلم ، وما تفرضه تلك الثقافة الدينية على مواطني المدينتين. فكل شخص في مدينة ما يختلف عن سواه لاختلاف مشارب كل من معين الثقافة التي تشكله .

لقد اهتم الروائيون بالمملكة بجماليات المدينة المكانية وبرزوه في أعمالهم وسردوا فيه علاقة المدينة بالشخوص ، فهم يحبون السفر إليها في أحيان كثيرة ، كما وإنهم يخافونها ويرهبونها ويحذرون من يذهب إليها أن يحذر منها فسكان المدينة كالحيات تميت من تلدغه :

" أريد أن أبعدك عن مثل هذا الطريق، فالبشر في المدينة أفاع عليك أن تتعلم كيف تعيش معهم وأنت آمن من لدغهم المميت حتى أنا تحرر مني.." (٢).

" فأي دلالة تحملها هذه الرموز، وأي مشاعر داخلية يثيرها ذكر المدينة.." (٣) فيها يتوه الناس ، وبؤرة لاستلاب الإنسان وتغريبه عن إنسانيته ووعيه لذاته ، وهي واقع مادي بين الإنسان والمدينة ، وعلاقة مميزه ، فهي تحفر صفاتها من قسوة وإرادة صلبة في كائنها لأنه نتاج من

١- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ١٠٤/١٠٣.

٢- عبده خال : مدن تأكل العشب ، ص ١٣٨ .

٣- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ...، مرجع سابق ، ص ١٠٤.

مستويات متعددة من بينها المستوي المكاني الأكثر تأثيراً وحفراً وصقلاً في أبعاده النفسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية على الإنسان :

" في الرياض دخن أول سيجارة ، وشرب أول قطرة خمر في حياته، وفي الرياض عرف طعم المرأة ، بعيداً عن تلك الرومانسيات التي كانت توّطر علاقته بنوره ، وفي الرياض تعلم كيف يغازل النساء في سوق سويقة . وشارع التميري ، وشارع الوزير، تعلم كيف يبحث عن بانعات اللذة المحرمة ، في أزقة الشميسي ، وحواري الديرة ، في الرياض كل شيء ممنوع وكل شيء مباح" (١).

ليس من الضروري ارتباط الرواية بالمكان والزمان واقعياً ، بل إن الفعل الروائي قد يفارق كل تلك الحقائق . ولعل تركي الحمد بحشده لكل تلك الأمكنة المعروفة وذات المرجعية الحقيقية يبنى بأن أشياء بدأت تظهر على سطح الحياة الاجتماعية ، أو أنها بدأت تمارس بصوت عالٍ ، ولا أدري أي معنى ما يقول أم أنه يجعل من الرياض مدينة كغيرها من مدن العالم . في أغلب الأحيان لا تظهر حقيقة المكان كاملة بالنظر إليه هو في ذاته ، إذ لأبد من مقايسته بغيره من الأمكنة الأخرى ، والآخر هنا هو الغرب ، والغرب فقط الذي يمكن أن تكون الممارسات الشخصية حرة وبعيدة عن الرقابة الشرعية.

فبالمملكة العربية لن تجد أماكن يباع فيها الحرام علناً. لذا فالمكان الذي ذكره تركي هو مكان تخيلي وإن توهمنا حقيقة الأسماء :

" قد تكون المدينة الزائفة هي السبب في إصراري هذا ، فأنا وإن كنت أحب أن أتعايش مع هذه المدينة .. إلا أنني لا أريد أن أراها تزحف إلى جزيرتي" (٢).

فالمدينة العربية كأنها النار من تحتها الرماد ، تظهر خلاف ما تبطن تخبي كل شيء بداخلها وتظهر غيره . فالخوف من تهيم المدينة على الجزيرة بعاداتها الدخيلة ومكرها ودهانها ، فالمدينة تحصر إنسانها في محيط ضيق لا يستطيع معها الالتفات إلى الفضيلة :

" من مدن الآلام المظمورة من عواصم الشجن المكبوت بقوامه النحيف ، وبشحوبه بالابتسامة الخفية على شفثيه ... جاء ليتقمصني ويذهب" (٣).

١- تركي الحمد : العدامة ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ١٦٩ .

٢- غالب حمزة أبو الفرج : وجوه بلا مكياب ، ص ٤٢ .

٣- غازي عبد الرحمن القصيبي : رجل جاء وذهب ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص

كل شيء في المدينة زائف ، يندر فيها الصدق ، وربما بالنسبة لابن القرية والريف ، فابن المدينة مسار تخوف البنات في الريف لما يتسمون به من تلون المشاعر ، حيث تكون الثقة فيه نوعاً من الارتهان إلى المجازفة فشكوك سلمى في (رواية تراب ، ودماء لعنقاوي) قالت لنديم : " ويلي ويلي منك يا ابن المدينة.. أتراك قلت هذا الكلام وأمثاله لفتيات الحضر" (١).
ولقد وفق المؤلف في استخدام أسلوب تيار الوعي الذي يسترجع به ماضيه وحاضره وتوظيفه لبعض العادات العربية وأثرها في السلوك الإنساني اليومي ، بلغة ملائمة للأحداث ومعبرة عن المستوى الفكري للشخص..

وقد حاول بعض الروائيين السعوديين أن يجعلوا من مدينة جدة منطلقاً لفضاء رواياتهم وطفقوا يصفونها معددين ما لها من مزايا أثرت في ساكنها ، راصدين كل المتغيرات التي لحقت بالإنسان فيها ، من رغبة في الهجرة ، ومنازعة النفس لتلك الفكرة وأزمة الهوية عندما يكون الرحيل بعيداً عنها :

" وكان يسأل نفسه هل يوافق تحت تأثير المغريات على ترك مدينة جدة حيث نشأ وترعرع ، أم يضرب بكل المغريات عرض الحائط ويبقى في مسقط رأسه ومدرج صباه ، وبعد تفكير طويل قرر أن يجيب نداء ذلك المقال فلا يفارق مدينة جدة إلى أي قطر آخر، فهذا هي تستصرخه عبر ذلك المقال ، وهتف بصوت مسموع : لبيك مدينتي الحبيبة وأختال حتى كاد خيلاؤه أن يقتله" (٢).

لذلك كان الحنين إليها والأنس بها مدعاة للتوازن النفسي والانسجام الرائع مع ما تبديه من علاقات . فجدة وطن مصغر لها على ساكنيها حق الانتماء ، والدفاع عن حقوقها ، لاسيما الحقوق الثقافية ، فهي في عيون أهلها مثقلة بجليل الرموز والإيحاء العميقة ، فهي المصدر الحقيقي للقيم الأصيلة التي يتحلى بها إنسان تلك المنطقة ، والقيمة عليها ، فهي تحفظها وتتعهد بها ، وهي الوسيط الجوهرى بين الإنسان والأرض ، والطبيعة عامة ولولاها لاعتراه الزيف ومسخته القيم المادية ، وأنبت عن جذوره ، ولما أدرك أنه حلقة في سلسلة الوجود لا قدرة لها على البقاء ، ولا على تمثلها نفسها إلا بفضل الحلقات السابقة . وها هو غالب حمزة أبو الفرج يصف جدة قبيل عيد الأضحى فيقول :

١. فواد عيد الحميد عنقاوي : تراب ودماء ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ١١٦ .
٢. هادي علي أبو عامرية : الأشباح ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص ٢٤١ .

" تتضاءل أنوار الشمس عندما تأخذ الغيوم طريقها إلى السماء كأجمل ما تكون الغيوم.. ببيضاء ناصعة صنعها الظل والمطر الذي تحمله وزاد من جمالها تشكيلاتها التي أخذت تبدو من بعيد وكأنها أشبه بصورة رسمها فنان عبقرى حساس . وجدة في ذلك اليوم ليست تلك المدينة التي أعرفها فلقد خلت من الناس وأصبحت هذه المدينة على صغرها أشبه بواحة مهجورة خاوية ولا غرابة في ذلك ففي الغد سوف يأتي عيد الحج الذي يجمع الناس كلهم على صعيد منى بعيداً عن بيوتهم"^(١).

فمدينة جدة ولقربها الجغرافي لمدن مناسك الحج تجدها تمتلئ حتى آخرها بزوار بيت الله الحرام ، في أثناء أداء تلك المناسك ، إلا إنها وفي يوم عرفة يغتم ساكنوها فرص الطلوع لعرفة لأداء الحج . كما تكون جدة في الصيف أشبه بمرجل ، ترتفع حرارتها فيلوذ الناس بالبحر هرباً من جحيم بيوتها الضيقة وشوارعها الملتوية :

" كان ذلك اليوم أحد أيام فصل الصيف القليلة التي يوجد فيها الجو في مدينة جدة بنسيم منعش متقطع تهب نفحاته بين الفينة والفينة قليلة قد أعيها الترحال وأثقلها ما تشبعت به من مياه البحر، وكانت تلك النفحات على قلتها كفيلاً بانعاش الأرواح التي أرمقها جو الصيف الخائق وتلطيف حرارة الأجساد التي سئمت هدير مكيفات الهواء ، وفي مثل هذا اليوم من أيام الصيف يتسابق سكان مدينة جدة إلى النزهة على شاطئ البحر ويجد رواد المقاهي لذة في الجلوس وتجاذب الحديث وتدخين الشيشة وشراب الشاي وغالباً ما تنتشر تلك المقاهي على جنبات شوارع غير محجوبة بالمباني ، وعادة ما تحلق رغبة فسيحة بكل مقهى توضع فيه الكراسي والشيش في فصل الصيف لتضمن استقبال الرواد لأكبر قدر من النسيم"^(٢).

هذه لوحة من فضاء مدينة جدة (حيث البحر ، الشاطئ ، الغرف ، هواء المكيفات ، المقاهي ، الطريق ، شرب الشاي ، الشيشة) ، كل هذه الصور داخل أمكنة كرونوبيا فالصيف زمني إلا أن هذه اللوحة لا تتحقق إلا في الصيف لأن العملية الزمكانية هي لحظة مكانية تتعلق بزمن معين :

" جدة هذه الليلية : تسقيه الظل وأصداء من إبداع الفجر المتوحد دوماً في موج البحر. مدينة تتمدد ، وتتسع ، وتكبر... وكأنها ترقب ركض الأفكار بديلاً عن الركض اليومي

١- غالب حمزة أبو الفرج : سنوات معه ، ص ٣.

٢- هادي أبو عامرية : الأشباح ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، ط ١ ، ١٩٨٩م ، ص ٤٩ .

بالأقدام : دورة الناس الدموية ، والقلب الخفاق بنظرة ، وتدافع موج أبيض نحو الشاطئ والأضلاع" (١).

والمكان باعتباره وجوداً وصفيًا لفظيًا يشكل عنصرًا جماليًا بذاته ، وعكس في الوقت نفسه وجهة نظر السارد وموقعه الشعوري ، مما ما حوله لأننا نتلقى المكان بكلمة السارد ووعيه ووصفه.

ومن الصور البصرية التي تحكي مقدرة الروائي السعودي على الانفراد والتصدر لجماليات المكان وإيراده كعلامة تميز الرواية السعودية فقد برع الروائي عبد الله سعيد جمعان الزهراني في حشد ما للمكان من جماليات :

" الشارع مزدحم بالسيارات والأنوار تغمر المدينة كزنجية حسناء قلدت لآئي براقية تشع بالأضواء .. المدينة ساحرة بالليل . الجميع خرج يستنشق نسيم الليل العطر في هذه المدينة الجميلة عروس المدن .. معالم الطريق بدت ترسم في مخيلته لأول مرة يشعر بجمال وطنه وروعة مدينته ، الملاهي بأنوارها الملونة المترافقة والمحال بياضاتها ذات النيون الجذابة الشوارع بأشجارها الباسقة التي أخذت تتأود كلما داعبتها نسمة هادئة رقيقة ، والفلل بأشكالها المختلفة ، وحدائقها الغناء ، وأشجارها الوارفة ، والعمائر العالية ، بواجهاتها الزجاجية اللامعة ، التي تعكس الحرارة ، والضوء .. والميادين التي انتصبت في وسطها أشكال جمالية رائعة تعتبر عن ذوق وحسن اختيار .. وهذه الشواطئ الرملية الناعمة حليت بمعالم واستراحات كثيرة لمن أراد الاستمتاع بالبحر ومنظر الغروب ، وتكسر الموج ، كأطراف فستان عند قدمي حسناء" (٢).

برع جمعان في إنكاء مفهوم المكان في هذه اللوحة الجمالية المكانية الرائعة ، فقد تعرض بالوصف إلى أمكنة عدة في سرده لفضاء المدينة التي أفصحت جلياً عن علاقة الأمكنة مع بعضها في حركة دينامية ، وكان كل تلك الأمكنة تجوس في حركة ديمومية لتفصح عن نفسها وكأنها كائنات حية . من هنا تبرز هيمنة المكان على فضاء الرواية ، فقد ذكر :

(الشارع ، المدينة ، المرأة ، الليل ، الأضواء ، النسيم ، عروس المدن ، الطريق ،

الوطن ، الملاهي ، المحال التجارية ، اللافتة الجذابة وهنا يبرز المكان الإيحائي السوق ،

١- عبد الله عبد الرحمن الجفري : أيام... معها ، ص ١١٩ .

٢- عبد الله سعيد جمعان الزهراني : ليلة عرس نادية ، نادي الطائف الأدبي ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ٥٨/٥٩ .

الأشجار الباسقة ، العماير العالية ، الواجهات الزجاجية ، الحرارة ، الميادين ، الأشكال الجمالية ، الشواطئ ، الرمال ، الاستراحات على الشاطئ ، البحر ، منظر الغروب ، منظر تكسر الأمواج ، أقدام النساء الحسنات). في هذا العرض المبدع لحيثيات المكان المدني نلمس طواعية اللغة التي أمتاز بها عبد الله جمعان الزهراني ، ومقدرته الفائقة في إيلاج شعرية الأمكنة ليعزز فضاءات روايته مما يخرجها في ثوب مكاني قشيب ، ليجسد لوحة ستظل تأسر النفس الباحثة في جماليات المكان الروائي في المملكة العربية السعودية .

على أن التجليات التي يظهريها نص (الطين – عام ٢٠٠٢م) للروائي عبد خال تجسد عالم المدينة وكل ما فيه من صفات ، كما أنه على مستوى النص الإبداعي لا يخلو من اعتبارات فنية ، وأيدولوجية ، يرمي إليها الروائي الذي يرى أن :
" المدينة مخبأ للجرذان والمعتوهين والمنبوذين وعابري السبيل . هناك يمكن أن ألتحم بالناس من غير أن أحتاج إلى سرد المبررات أو الأعذار لهذه الهيئة الشاذة ، وللوجود العدم".^(١)

فالمدينة كمزيلة لبغاث الناس والهاربين وشذاذ الأفاق ، لها القابلية في تحمل أخطاء الآخرين ، دون أن يبدوا أي مسوغات أو أعذار لما يفعلونه ، فهي تارة كالبحر تستر حتى تجد في جوفها الخلاص من أثم العار ، لكل الزائرين لها ، فالإنسان في المدينة يعيش في قلق دائم جراء ما يعتمل في نفسه من صور الانفلات الأخلاقي فحين :

" ارتجت الرياض لدويء التفجيرات ، وخرج الموظفون من إداراتهم ، وركض الكثير منهم إلى مدارس أولادهم وبناتهم ليحتضنوا فلذات أكبادهم ، وينطلقوا بهم إلى بيوتهم مع أهلهم والبعض دفعه الفضول لمشاهدة موضع الحدث ، وشفاهم ترتج بكلمات استفهامية قلقة : هل أصابت هذا البلد الأمن عدوى الإرهاب المتزايدة من حوله الجزائر، مصر؟"^(٢)

لأن الرواية هي سرد لكل ما يجيش بخواطر الروائي وما تمر به من أحداث ، ولأن الرواية هي سرد تاريخي لما كان ، وفي وقت معين ، جاءت رواية (أيام معها... عام ٢٠٠١م) للجفري ، مدونة تلك اللحظة التي هزت العاصمة الرياض بفعل المخربين الإرهابيين . فالجفري كرس حياته الأدبية لمعالجة الهنأت التي طرأت على المجتمع السعودي ، فهو إنسان غير تفصيلي

١- عبد خال : الطين ، دار الساقى للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٩٧ .

٢- عبد الله الجفري : أيام ... معها ، ص ٨٨ .

يتحدث عن أي موضوع بإيجاز حتى في أمور حياته الشخصية ، الشيء الذي جعله يمتاز بملكة لغوية ساعدته كثيراً في تميز كتاباته ولاسيما الروائية . متمثلاً بالقول إن من الأيائل ما يصاد بالصفير والغناء .

إن التناقضات التي لفت المجتمع طالت العلاقات بين أفرادها ، وهمشت شخصياتهم ، وشوهت نظراتهم للأمور ، وأحلت قيماً بديلة لقيم ، الأمر الذي قسم المجتمع بين تحلل ومغالاة . ففي غرفة بالسطح ، نجد "رفيق" مثلاً للإنسان المهمل الذي يصادق أصحاب السوء والمجون ويتعاطى المخدرات ، ونجد بها أيضاً صديقه "كريم" المكافح المجتهد للوصول لمأربه وطموحاته ، الذي يرفض أن يكون الإنسان بلا هدف ، والذي سافر ليجني المال حتى يتسنى له الزواج بابنة مخدومه التاجر برهان ، الذي يرى أن الاستطاعة المالية مهمة في الارتباط بابنته "قمر" الذي أودعها لصديقه رفيق كإمانة يرعاها، ولأن كل إثناء ينضح بما فيه عاد كريم وهو يحلم:

" وأخذ يجول ببصره في أنحاء المدينة شوارعها كل شيء على ما هو عليه ، لقد اشتاق لكل شيء في مدينته حتى أصوات الرياح ، التي كانت في أذنيه ، كأجمل الحان الدنيا وكان يرى أزهار الحدائق وكأنها تبسّم له ، وتغني وترقص ، وكأنه يرى وجه حبيبته في كل الوجوه وتمنى لو يضم كل من يقابله في الطريق إلى صدره وكأنهم جميعاً أصدقاؤه" (١)

ولكنه نسي أو تناسى أنه في المدينة حيث يبقى الإنسان فريسة للطمع واللحظة ، والخيانة ، ولأن في المدينة تجد أن البعيد عن العين بعيد عن القلب ، فبعودته يجد حبيبته متزوجة من من ؟ من صديق عمره . وبذلك تتجلى قساوة المدينة حيث أنها ترى طبيته وبساطته جرماً يستحق العقاب وليس قيمة أخلاقية تستحق الثواب .

ثم يأتي العم "أمين" الذي أجهز على ما تبقى له من أمل في الحياة وأخذ كل ما حصده في غربته ، ليصبح تقييم الإنسان في مجتمعنا تقييماً فاسداً يجعله مرشحاً للجنون أو الاكتئاب أو الاستسلام ، ليصبح شحاذاً بالأسواق . ولأن حياة المدينة لا ترحم ، تجمع الأيام بين ثلاثتهم في مشهد يدمي العواطف الإنسانية التي اغتالها حياة المدينة .

١- محمد سعيد المطرفي : إنسان خلف أسوار الزمان ، مطابع الحميصي، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ص ١٢٠ .

ثنائية القرية والمدينة :

تأخذ ثنائية القرية والمدينة أشكالاً مختلفة ، وتقوم العلاقة بينهما في الثقافة العربية على الصراع ، حيث تبدو المدينة هي الأقوى بما تمثله من سيطرة قوية على تسيير الشئون الحياتية للقرية ، التي تأتي في المنزلة الثانية المهمشة في تلك العلاقة . إلا أنها تشكل حيزاً موازياً للمدينة في الرواية السعودية ، إذ تعتبر رديفاً لها من حيث التجمعات السكانية والفضاءات الجمالية المكانية ، إى إن تلك الفضاءات عرضة للتحويل والزوال أمام جبروت المدينة الزاحف نحوها.

" ومن الروائيين الذين جال متتهم الحكائي حول مفهوم القرية نجد تجربة الروائي عبد العزيز مشري الغنية بذلك المفهوم . إن تجربة المشري تجربة غير عادية من حيث استمراريتها وتركيزها تقريباً على قضية واحدة تحولت في معظم أعماله إلى موتيف MOTIF متكرر . فالمشري مهتم بقضية التحولات الاجتماعية في مجتمع القرية ، وبالتحديد القرية الجنوبية ويجب أن نوضح أن الكاتب قد تعامل مع موضوع التحولات من ناحيتين : ما قبل التحولات كما في رواية (الحصون - عام ١٩٩٢م)^(١) ، ورواية (صالحة - عام ١٩٩٧م)^(٢) ، وقبل التحولات وفي أثنائها كما في (الوسمية - عام ١٩٨٥م)^(٣) و(الغيوم ومنابت الشجر - عام ١٩٨٧م)^(٤) ، و(ريح الكادي - عام ١٩٩٣م)^(٥) ، فمن خلال معالجة هذا الموضوع يؤسس الكاتب لخطاب اجتماعي يغلب عليه أحياناً الخطابية والتوثيقية"^(٦).

" كانت القرية القديمة على سفح الجبل ، تتكوى شبه خالية من الساكنين بينما تناثرت بيوت حديثة استبدل بناؤها بالأسمنت ، ووقفت إلى جانبها سيارات ملونة ، وكان بداخل هذه البيوت ، أناس أحبوا أنفسهم كثيراً ، فاتعزلوا وتركوا البقية ، أرضيهم خاوية الزرع ، وقد تهدمت جوانبها وغزتها النباتات الغريبة ، فتراها جانب الأخريات النضرة ، يابسة كجواعد الخراف البيضاء.." ^(٧).

كذلك نجد تجربة عبده خال غنية بهذا المنحى . " لم تعد تلك القرية ... الذاهبة للثرى.." ^(٨)

- ١- عبد العزيز مشري : الحصون ، دار الأرض لنشر ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٢م.
- ٢- عبد العزيز مشري : صالحة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م.
- ٣- عبد العزيز مشري : الوسمية ، دار شهدي للنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٥م.
- ٤- عبد العزيز مشري : الغيوم ومنابت الشجر ، دار الصافي ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٠م.
- ٥- عبد العزيز مشري : ريح الكادي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م.
- ٦- حسن النعمي : رجع البصر... مرجع سابق ، ص ٧٣ .
- ٧- عبد العزيز مشري : الغيوم ومنابت الشجر ، ص ٢٣٧ .
- ٨- عبده خال : مدن تأكل العشب ، ص ٢٣٧ .

بعد أن هجرها أبناؤها تاركاً فراشها فذهب فيها كل شيء جميل ، فالحقول ما عاد من يحرقها فجفت ويبس زرعها ، ولا يوجد من يعلف الدواب فنفق أكثرها وفرغت طرقها من المارة الهاربين ، المستجبرين من الرمضاء بالنار، تركها تتناوش فيها الطيور العجزة الذين تنظرهم قبورهم ، تركها وذهب ليضاجع المدينة التي لا تجبر أحداً :

" في أحيان كثيرة تشعر بأنه ضحية ، قدمته القرى قربانا للمدن ليتصالح بقية أبنائها مع شوارعها الضيقة الملتوية وتمنحهم قليلاً من رضاها ، دفعتني قريتي للمدن كي يسيل دمي"^(١).

غير أن القرية في الرواية السعودية تتجلى غالباً بمظاهر حسنة ، فالقرية رمز لكل ما هو جميل ، البراءة ، والهدوء ، وراحة البال ، والسكينة ، والاطمئنان في العيش بين جنباتها :

" كان الليل يضحك في سماء قريتنا ، وحين يأوي أهل القرية إلى مخادعهم ، تكون الحياة رثة في تلك المنامات الوضيعة . تهدل الروح بأمنيات خضر، تعرشت بحلم جري كما في مخادع عطشى فالتموا جميعاً لاقتسامه ، بينما كان يتسلل من بين أصابعهم المتراخية ، ويفرق في العيون السكرى بالنوم الثقيل"^(٢).

لقد كانت السمة الغالبة في الروايات السعودية هي لفت الانتباه إلى الشباب القادم من القرى الريفية بحثاً عن فرص العمل في المدن . وهو الشيء الذي يمكن تبينه في الكثير من الأعمال الروائية التي صدرت بالمملكة وفي الروايات العربية أيضاً . فالمدينة هي المكان الذي يستقطب أبناء القرى سعياً للكسب السريع ، فرواية (حارة البحارة - عام ٢٠٠٠م) لعبد الكريم محمود الخطيب و (إنسان خلف أسوار الزمان - عام ١٩٩٩م) لمحمد سعيد المطرفي خير دليل على ذلك.

١- عبده خال : مدن تاكل العشب ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٣٩ .
٢- عبده خال : الطين ، ص ٢٢٠ .

" ساحات القرية خلت من تلك القامات المشدودة والأصوات الممتعة ، وغدت البيوت خاوية من الأطفال وصيحاتهم المتعالية مما مكن طيور المساملة من أن تشفق طويلاً من غير أن تجد طفلاً يتربص بها لإيقاعها في تلك الفخاخ المنصوبة ، على جذوع الشجر وبين أغصانها فالصغار خرجوا يحملون بيارقهم الملونة ويسابقون ذويهم نحو المقدمة ، ولم يتبق داخل القرية إلا صرخات الرضع ، وأنات المسنين الذين يزحفون نحو قبورهم بمثل وألم"^(١).

غير أن هناك وعلى الطرف الآخر من المدينة ، من يحن لقرية ، ويمني نفسه لو أسعفته الأيام أن يعود إليها ، لأنها المخزن الحقيقي للأمل المرجو والمنشود ، والملاذ الآمن ، حين تقسو المدينة ، فهي كالأم لا تغضب على أبنائها، ولو جاروا عليها في وقتٍ ما ، فقلبها أبيض ، كالحليب لا يحمل الضغينة ترحب دائماً بالعائدين إليها لأنها تترك مكانهم شاغراً لا تملؤه بأحد غيرهم، على النقيض من المدينة التي ما انفكت تستبدل بأخرين ، حيث لا يعدو الإنسان كونه عابراً فيها وماراً، وضيافاً ربما ثقيلاً، أخذ نصيبه وذهب غير مأسوفٍ عليه :

" قريتي التي ظلت جبلاً بداخلي كلما جرفنتي مياه الغربة صعدت إليه ولوعة شجن تثمر بداخلي ، وحلماً يخامرني بالعودة لحقولها وتعرجاتها وشوارعها النابتة بالناس الطيبين؛ وحياء.. تلك الفتاة التي أفت على عينيها فأغدو طائراً يحلق في الفضاء بلا جناحين"^(٢).

١- عبد خال : الطين ، دار الساقى للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٤٣ .
٢- عبده خال : مدن تأكل العشب ، ص ٣٧ .

الأماكن المقدسة بين القبول والرفض :

لقد شغل بعض الروائيين خصوصية المكان المقدس ، وأولوه مكانة مهمة لما له من وقع خاص في نفس الإنسان المسلم من خلال التركيز على المكانة الدينية له ، في رواياتهم ، إما بذكرها صراحة أو بذكر بعض متعلقاتها .

ومن الأماكن المقدسة موضوع الاهتمام المكانان ، مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، فلو كان المتأمل ذا بصر وبصيرة متقدة بالوعي المعرفي بالتاريخ الحضاري ، سيفودك إلى محطة ماهرة ، وستتوقف قسراً على أولى الحضارات الإنسانية على الأرض ، ستجد مكة ، أول بيت وضع للناس ، (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين)^(١) ثم قررت أن تكتشف ذلك المكان ، وتحرك أقدامك فوق تراب تلك الأرض المقدسة ستقرأ فوق صفحات دروبها وطرقها وجبالها وبيتها المقدس العتيق ، والصفاء والمروءة وحجره وحجره ، ومقام وقف فيه النبي إبراهيم (عليه السلام) ، ستجد علامات دالة لا يختلف عليها اثنان فهناك ازدهرت أول حضارة ساهم في بنائها وتطورها الإنسان العربي ، الذي خلد بصماته على جميع الثقافات والحضارات القديمة والحديثة .

المدينة المنورة مهوى أفئدة المسلمين والحضن الدافئ الذي احتضن الرسالة الإسلامية ، والملاذ الأمن لكل من يؤمها حيث الأنصار الذين احتقوا ورحبوا بمقدم النبي الكريم وصحبه الأخيار ، وأنزلوه خير منزل ، والحاوية لجل الآثار الإسلامية ، حيث مدافن الشهداء ، البقيع ، وأحد ، وشهداؤها ، لذا فمكة والمدينة المكانان الروحانيان الشفيغان اللذان يتفق علي حبهما كل مسلم ، ولعل هذه الخصوصية لهما لم تتكرر لأماكن أخرى في التاريخ أو لبقعة جغرافية في العالم أجمع . بمعنى أن مكة والمدينة "المكان" يأخذان حيزاً كبيراً في الذاكرة ، ويتداعى الإحساس بهذا الحيز وما يتركه في ضمير المؤلف من تلك الخصوصية القدسية ، فلولاهما ما كنا نتزاحم على تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن.

الشيء الذي فتن الروائيين المسلمين من جميع الجنسيات بوجه عام ، والروائيين السعوديين على وجه الخصوص ، ففي الأدب العربي السعودي ، وكسمة تميزه عن غيره ، نجد اهتمام الروائيين بهاتيك الأماكن المقدسة من جوانب عدة ، أهمهما أنها تمثل لهم هويتهم الإسلامية في المقام الأول من حيث إنهما وطن أم لهم ، لذلك جاء ذكرهما كثيراً في الأدب السعودي في

١- سورة آل عمران : آية ٩٦

الشعر وفي الرواية ، ليحمل تلك المضامين . فحين يرد ذكر أحدهما أو كليهما إنما بدافع التغزل ، والافتخار ، وإظهار حبهما وقدسيتها بالنسبة للسارد ، ليثير عواطف القارئ تبعاً لذلك وينشط بذاكرته كل تلك الأحداث التي جرت فيهما. القول الذي يصدقه كل مطلع على غالبية الروايات الصادرة قديماً وحديثاً بالمملكة العربية السعودية ، غير أن من الروائيين المميزين الذين وشحوا فضاءات أعمالهم الروائية بالأمكنة المقدسة ، وأولوها عناية خاصة الروائية المتمكنة رجاء محمد عالم صاحبة رواية (طريق الحرير— عام ١٩٩٥م) التي تفوح بكل تلك الأعراف الطيبة ، التي تعبق بالفضاء المكي ، ورواية (خاتم — عام ٢٠٠١م) ، التي خصصتها لتحتضن بالمكان المدني ، نجد الفضاءين يسيطران كلياً على أجزاء كبيرة من الروائيتين :

" هذه النزلة سلكتها جنوري هابطة من أعلى المعلاة الآن مقابر مكة بأضلع تلك النزلة . هنا انتهى البحر وبدأ طريق الشريف الذي كان في استقبال المحمل . لحظة دخولي مكة كان مقبلاً في كبريائه وتخوته وجنده يضربون الدفوف . ثم حلقوا من الأرض حلقة حل فيها: نسراً من أبهى نسور الأشراف. ومن حلتته خلع على الناس ألقاباً وحللاً أضاعت ليالي أم القرى ببهجتها وخفتها...وأضاعتني من عفر السفر... ومن هنا أخترق بالمحمل باب السلام ، وخلع على الكعبة كسوتها ، فخيّمت من الكسوة على مكة ثياب ومآزر فلم يبق عريان يسري بدروب الحرم شرقاً وغرباً وجنوباً تذررت بوصلّة البلاد والساري فيها.. وذررتني... نعم من جُب تحت الكعبة يخرج أقصر الطرق لبلوغ مكة.. جُب لا تنضب كنوزه ، وتغذيها دعوات أهل الأرض دعوات الحجاز تبلغ أقصر تلك الطرق.. ثم توقف جدي الأول وذب الغبار القديم من جوفه، وأكمل بطمأنينة "هنا جرت مكائس الصاغة والتجار وعشاق الحرم على كاحلي ومسحت طرق المغرب ، فتيقنت عندها من اكتمال دربي للبيت...يوم هبوطي مكة كان الكبراء ينفذون حكماً بالكس رداً لتلاعبهم... فاتصاعوا للحكم إشهاراً للعشق"^(١).

في هذا المشهد ، وهذه اللوحة المعبقة بعطر البيت العتيق ، تمكنت رجاء عالم بقدرتها التصويرية والعاطفية المشبوبة بعشق مكة ، في مشهد سردي فريد ، أن تحشد تقريباً كل الفضاء المكي (فمكة ، الحرم المكي ، المعلاة ، مقابر المكيبين ، النزلة ، أم القرى ، باب السلام ، الكعبة وكسوتها ، الدروب ، الاتجاهات الجغرافية ، شرقاً ، غرباً ، جنوباً ، البلاد ، الجُب ، زمزم ، الطرق ، الكنوز ، المكائس ، المغرب ، البيت ..) ، كما لم تتسن أن تحضر شخوص تلك

١- رجاء عالم : طريق الحرير ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ص ٦٤/٦٣.

الأماكن معها ، فالصاغة ، التجار ، عشاق الحرم ، أهل الأرض ، في مشهد ملئ بالأمكنة ، وحركة الأشخاص التي تتجلى فيها عواطفهم تجاه ذلك المكان ، فالذين حكم عليهم بالكنس عقاباً ، انصاعوا للأمر إشهاراً لعشقهم المكان .

" وسارعت هيا فأخرجت من كتبها غزالتين تحرسان جُبا بجوف الكعبة ، والجُـب حاو لكنوز الأرض"^(١).

إن فضاء "طريق الحرير" فضاء تاريخي مرتبط مباشرة بالفضاء المكي لما له من رسوخ عميق في ذهنية الروائية ولاسيما الخصوصية الأدبية التي تميزت بها رواياتها. "إن هذه الرواية تدخل في باب تجريبي لحشد الأمكنة القديمة في التاريخ القديم مع منحها حضوراً حديثاً يقوم على استخلاص المشترك في الحدث من وجهات لغوية في أغلب الأحيان"^(٢) . أما في مقاربتها الثانية (خاتم - عام ٢٠٠١م) والتي حفلت بالفضاء المدني في كثير من مقاطعها السردية والتي منها :

" الخبر فتح كوة بقلب الشيخ (نصيب) وأطلق آمال فرج في تنويج وليده بالنسب الحر، (محسن) يكبر سند بما يقارب الشهر، لذا كان الشيخ (نصيب) في سباق مع سواقي ذلك الثدي المعلق في المدينة المنورة . مذ شاع نبأ تاهب الشيخ نصيب للزيارة النبوية توافدت النسوة بالنذور " أمانة تعقدي لي في الروضة بنذر، نذرت رقية حسيل لو رجع سيدي بالسلامة " الفاتحة مني أمانة ، للمصطفى ، وسيدي أبو بكر وعمر " " أمانة تفرقي ستين قرص فطير على روح أمي في مساكين البقيع 'ودست في يد سكيئة ريال فضة ..." هذه ثلاثة ريالات فضة ، فرقي عني نذر ثلاثة أكباش في مجاوري الروضة" صري عني كسوة للأغوات " (وسكيئة) تأخذ وتصر من نذور لا تنقطع ، وهبات لمساكين قباء وتلاوات لدقني البقيع ، تترافق وأهازيج المزهدين التي تداخلت حتى بالأحلام وحملت الدار على جناحيها وقطعت بهم الأيام الثلاثة التي تسبق الرحيل"^(٣) .

١- رجاء عالم : طريق الحرير، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ص ١٤٣ .

٢- عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان ..، مرجع سابق، ص ١٦٣ .

٣- رجاء عالم : خاتم ، ص ٩/٨ .

" ثلاثة أدلاء رافقوا الموكب المسكون بالفرح ، فرح يطير بأخفاف الرواحل ويطوي المسافة لقبر الحبيب بلا روية"^(١) .

"الفجر حين يحل على المسجد النبوي يترقش بخضرة طالعة من الحضرة المخفية بالأستار، حضرة القبر أعتى من صيحة الحياة بالخارج"^(٢) .

إن المتابع لغالبية أعمال الروائية رجاء عالم يجدها مرتوية بالمكانين مكة والمدينة حد الارتواء ، الذي بدا واضحاً وجلياً في مقاربتها ولاسيما في (طريق الحرير - عام ١٩٩٥م) و(خاتم - عام ٢٠٠١م) فالقارئ للروايتين يرهف السمع إليها عبر كتاباتها السردية، فنتسلل إلى أعماقك أصداء الماضي موشوشة أحاديثها العميقة الغامضة ، ولغتها الغربية ، فكل مقطع فيها وقفته الخاصة ومدلوله النفسي الخاص ، مشرقة معها القارئ في تجلية خصائص المكان ، بانفعالاته الخاصة لمزيد من العلاقات السردية . الشيء الذي تميزت به الكاتبة .

غير أن هناك بعض الروائيين الذين أضافوا فضاءات مقدسة غير مكة والمدينة إلى رواياتهم كمقامات الأولياء والصالحين والمساجد والرموز الإسلامية ، كما لم يخطف المكان المسيحي واليهودي المستجلب من بيئات خارجية ، الذي له أثر في نفوس أهله :

"أما في بغداد ذاتها بمحلاتها وشوارعها وأزقتها الضيقة ، بمناطق التجارة والأسواق الصغيرة في الأطراف ، بالمساجد ومقامات الأولياء ومعابد النصارى واليهود ، وفي البيوت وعند زوايا الشوارع ، وفي المقاهي بشكل خاص"^(٣) .

إن الرواية السعودية عكست وعي الإنسان السعودي كاتباً وراوياً وقارئاً بالمكان الصحراء - البحر - المدينة - الأمكنة المقدسة . وأبدى الكتاب وعيهم وإدراكهم لها متذوقين جمالياتها الفنية وما يتركه المكان في ذاكرة كل شخص منهم من انطباعات راسخة لاتمحوها الأيام وذلك بدا أثره واضحاً في معطيات الإنسان وسلوكه الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي والنفسي ، والديني ، وهكذا تكلمت الرواية السعودية .

١- رجاء عالم : خاتم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ١٠ .

٢- المصدر نفسه ، ص ١٣ / ١٤ .

٣- عبد الرحمن منيف : أرض السواد ، الجزء الأول ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٢م ص ٥٤ .

جولتنا مع المكان ، كلما استبدت بنا ، أظهرت لنا من السعة الموضوعية والتمدد ما يرغمنا على الإعتراف بمحدودية تصورنا الذي أنشأناه قبلاً ، وفتح أمامنا أفاقاً أرحب للنظر في خباياه وأبعاده الغائرة وزوايا آخر، في الفقرة القادمة سوف نتحدث عن المكان المغلق متخذين من السجن ، والبيت والمقهى ، والقصر، نماذج ومنطلقات لدراستنا التي نحسبها لن تفي بالغرض إلا من باب المحاولة التي أثرنا على أنفسنا الدخول في عالمها من باب الفائدة. والله المستعان.

الأمكنة المغلقة :

كل عمل فني لابد أن يقوم على ثنائيات متقابلة فالمكان المفتوح يقابله المكان المغلق الذي تزخر به غالبية الروايات الصادرة بالمملكة العربية السعودية لما له من خصوبة ومغان في الأدب السعودي ، وبما يمثله للإنسان في ذاته ، فعلاقة الإنسان بالمكان المفتوح علاقة عامة تشملها وتشمل غيره ، إلا أن المكان المغلق ، مغلق أمام الغير ، لذلك تأتي أهميته من هذه النظرة الخاصة .

البيت :

" أما البيت في العربية فهو أقل حجماً من الدار ، ويطلق على بيوت العامة من الناس وإن كانت هذه المفاهيم قد تغيرت الآن ، في غمرة فوضى المصطلحات والمسميات العربية ، والزوال الخاطيء للحدود العلمية والاجتماعية بين الأشياء . والبيت ، والمبيت ، والمبات ، في اللغة معناه واحد وهو المكان الذي يقيم فيه المرء في الليل ، وإن لم ينم فيه . ولهذا دلالاته الكبيرة في التفريق بين الدار والبيت . فالدار هي مكان للإقامة والنوم والاجتماع والسمر ... بينما البيت هو للإقامة ليلاً فقط . أي أنه لا يتسع في الأصل إلا لهذا الغرض . ومن هنا كان أصغر حجماً من الدار ، وأقل مقداراً من الناحية المعمارية والاجتماعية .." (١)

وفي مسار حياة الإنسان منذ ولادته وحتى آخر حياته تتكون لديه علاقات مشهدية ترتبط بالمألوف من حياته والمعتاد عليه ، فأول مكان ارتبط به الإنسان حضن والدته ومهدده وحجرته التي ينام فيها ثم يتسع فضاؤه ليكون علاقته مع البيت الذي يأويه ويبدأ عملية التلاحق والانتماء والشعور بالألفة وذلك لما يوفره له البيت من ألفة وحماية وعزل عن عيون الآخرين الباحثين عن متعبه :

" وأنا.. بمفردي في هذا البيت الذي يطل على النورية.. بيت من حجر قديم زخرفته الأيام وأمالت بعضاً من أجزائه ، فقد كانت بيوت جدة كلها من هذا النوع الذي كادت تقضي عليه مظاهر التطور الذي لم نعد نرى سواها القليل منه في وسط البلد" (٢).

١- شاكِر النَّابلسي : جماليات المكان في الرواية العربية ، المؤسسة العربية لدراسات ونشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤ م ، ص١٤٢ .
٢- غالب حمزة أبو الفرج : سنوات معه ، المجموعة الإعلامية لنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٧ م ، ص٣ .

وفضلاً عن كون البيت تمثيلاً حياً لقييم الألفة فإنه يحوز على بعد معرفي بعالم الإنسان الداخلي حيث يشكل بيت الطفل نقطة انطلاقه نحو العالم الأرحب المحيط به ، فما أن يلوح البيت في أفق الذاكرة حتى يحضر الماضي مشعاً كما البدر وخصباً ينبتُ بنداوة الذكرى وممتلئاً بالخيال الحالم والذكريات الساطعة بدفء المشاعر والحنين لتلك الأيام التي لن تعود ، " البيت هو ركننا في العالم . إنه كما قيل مراراً ، كوننا الأول ، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى" (١)

" لقد كان تقسيم البيت الكبير من الداخل فقط.. أما الخارج ، والمظهر.. فلم يحدث شيء يغير الصورة التي تعودها الناس وعرفوها عن بيت (الحاج حامد).. مزال هو البيت الكبير الشاهق بأواره الستة ، وبوابته الضخمة المشرعة ، ومزال هناك (الرأس) أو الأمر المطاع الذي حل مكان (جدي) وهو أبي" (٢).

يحرص الإنسان على أن يحافظ على بيت الأسرة الكبير ويحافظ على حفظ نظامه من أن ينفرد عقده كما يحافظ على أن تظل أبوابه على ما هي عليه معلنة استمرارية البيت . فالبيوت المتلاصقة تكفل الأمان :

" بيوت جدة متلاصقة وقلوب جيرانها ملتصقة بقلوب بعض أيضاً" (٣).

وكغيره من الأشياء لا يكون البيت دائماً للأمن والاستقرار فهناك بيوت تعني الخوف والهلاك كالبيوت المهجورة التي تعد في الأسطورة الشعبية مكان الجن والمردة فلا يدخلونها وكثير منهم يودعها أسرارهم من جرائم ومدخرات :

" دخل البحار البيت المهجور وأخذ يبحث عن سر عواد حتى وجد آثار حفر جديد في لرض الغرفة فظن أن عواداً قتل قتيلاً ودفنه في هذا المكان" (٤).

ثمة بيت آخر هو (البيت الأبيض) رمز الصلف والاستبداد والغرور والظلم والاستعلاء وأخذ ما للغير والهيمنة والتسلط وسحق الآخرين ، البيت الذي أذل الإنسان العربي وأباح كل ما لديه وأهدر كرامته والذي يفعل بالعرب ما يشاء ووقت ما يريد :

" وغادرت البيت الأبيض والدموع تنهمر من عيني . " (٥).

١- غلستون باشلار : جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر ، ط٥ ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، ص٣٦ .
٢- عصام خوقير : السكر المر ، ص٨ .
٣- عبد الله عبد الرحمن الجفري : جزء من حلم ، ص٦٨ .
٤- عبد الكريم محمود الخطيب : حارة البحارة ، ص١٦ .
٥- غازي عبد الرحمن القصيبي : أبو صلاح البرماني ، المؤسسة العربية لدراسات والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٢م ، ص٩٠ .

السجن:

السجون على مر العصور مكان للظلمة والظلم المتمخضة من فساد الأنظمة الحاكمة ، التي تختنق في داخلها صرخات المظلومين ، من مناهضي الحكم والحكماء ، الذين حملوا على عاتقهم أقال الإنسان ، ومحنه ، والساعين لخلاصه من الظلم ، فمن عهد سيدنا يوسف عليه السلام ، عرفنا السجن والمسجونين وعرفنا الظلم الذي يحيق بالإنسان ، فالسجن يلتقم الإنسان كما التقم الحوت سيدنا يونس عليه السلام ، فالسجن هو القادر على تكبيل الحريات ، كما أنه القادر على فرض حدود للوجود البشري داخله ، ويبدل حركته المفتوحة ، بحركة تقيدها الحدود المانعة ، للاختراق ، والأسلاك ، وأبراج المراقبة .

" لم يعن الروائيون العرب بمكان جمالية كبيرة ، كما اعتنوا بالسجون . فسجون الإنسان على وجه الخصوص كانت ظاهرة مميزة في أمكنة الروايات العربية المعاصرة التي كتبت ونشرت ، بدءاً من الستينيات ، وحتى الآن . وهي ظاهرة فنية واجتماعية وسياسية ، لها ما يبررها في التاريخ العربي الحديث ، فيما لو علمنا أن الأمكنة العربية ، قد أصبحت سجون الإنسان العربي . بدءاً من البيت الذي تسجن فيه المرأة ، ومروراً بالمدارس ، والمعاهد العلمية المختلفة التي يسجن فيها الفكرة والكتاب الذي يسجن فيه الإبداع ، والصحافة التي يسجن فيها الرأي والرأي الآخر ، والإعلام الرسمي الذي يسجن فيه رأي الشارع العربي ، وانتهاءً ، بمباني السجون التقليدية ، التي تحشد فيها المعارضة السياسية ، والأيديولوجية بشتى اتجاهاتها، وتنوع أفكارها." (١) ، "ويتجلى السجن كمكان له جمالياته وله سكانه وله أنماط الناس المتواجدين فيه من السجناء والسجانين ، ويمثل السجن مساحة واسعة من الرواية الخليجية ، بل لعل الكثيرين جعلوا السجن بطلاً لمشاهد كثيرة من رواياتهم ، وصار السجن هو الخير الذي يمد فعله إلى نفوس الناس ، المتقاطعين معه ، فصار السجن منمطاً إلى حد كبير ، وصار الناس داخل السجن ، لهم خصائص مستمدة من هذا المكان ، السجن ، وبفعل تأثيره .

١- شاكر النابلسي : جماليات المكان في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م ، ص٣٠٩ .

وحتى اللغة داخل السجن لها مفردات ولها أنماط التعبير المتعلقة بها .." (١) والذي يجده القارئ في غالبية روايات عبد الرحمن منيف، وتركبي الحمد وغيرهم " السجنون في روايات عبد الرحمن منيف من حيث أنها أمكنة ، تشكل فضاء مثاليا للموت والقهر والذل .. وكلما انتقلنا من واحد لآخر يتراءى لنا الموت ماثلا أمامنا محدقا بنا ، بالإضافة إلى أبشع أشكال القهر وأقساها " (٢) وهو من الأماكن الإجبارية للإنسان ، ويوظف في الرواية كمدلول يعني الإدانة لفساد الأنظمة الحاكمة ، فنزله مسلوب الحرية ، مذنبا كان أم بريئا، ومعزول عن عالمه الخارجي ، يلاقي فيه صنوف العذاب والتكيل والاضطهاد وقسوة المعاملة من زبانيته لاسيما السجن السياسي أو المعتقلات التي تختنق في داخلها أبسط الحريات :

" كانت لهم شعور طويلة وفوق أيديهم حتى الأصابع ، وكان لهم شعور في صدورهم أما رؤوسهم فقد تعودت أن تترك لشعورهم الحرية في أن تنزلق ساعات الغضب العيون تنفتح من الدهشة والغضب . يجب أن تتكلم يا ... ، ساعلمك كيف تقول كل شيء ، لن تعيش هذه المرة .. " (٣)

" وسبق إلى السجن السياسي الذي أعد له ولأمثاله من الخائنين .. وهناك انتهى عهده بالحياة ، وانقطعت صلته عن العالم الخارجي ، فلم يعد يحس إلا بظلم ، ولم يعد يرى إلا ظلمات ، ولم يسمع سوى أنات وأهات واشتد الزبانية في القسوة عليه.. فكوت جنوبه بالنار، وقلمت أظافره ، وكاد أن يفقد بصره.. وزاد في آلامه أنه يلقي من العذاب أصنافه دون أن يكلمه أو يسمع منه أحد سوى أولئك الجلادين الذين يتلذذون بتكيله ، ويتلهون بإذلاله، ويتسلون بقتل إنسانيته.. وفي صباح يوم مظلّم.. داهمت زنزانته مجموعة من جنود أشداء أمسكوا به لووا ذراعيه .. غمموا عينيه ، كعموا فمه .. ودفع به جندي غليظ إلى الأمام فسقط على الأرض فدكته بندقيته على رأسه أفقدته الوعي .. وصارت سنابك البنادق تدفعه وتلقيه..

-
- ١- عبدالحمد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، وزارة الإعلام ، البحرين ، ط١ ٢٠٠١م ، ص٢٥٧.
 - ٢- صالح إبراهيم : الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص٣٨.
 - ٣- عبد الرحمن منيف : شرق المتوسط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ص٦٨.

وتتنوع السجون وتتنوع تبعاً لها أنواع المساجين ، فهناك السجون الرمزية التي تعاني منها المرأة العربية تحت ظروف الاضطهاد الزوجي ، فالمرأة التي تعد تسلط الزوج وعنجهيته وسلبه لحقوقها وفرضه لها بملازمتها البيت تعد كل ذلك من أقسى السجون إذا لم يصاحب هذا التعنت والاستعلاء حب واحترام ومودة تُلطف لها حر الظروف الاجتماعية التي تعاني منها المرأة العربية وما يفرضه عليها دينها. فالمرأة ما فتئت تتادي بحريتها المسلوقة تحت رابطة العلاقة الزوجية ، فعندما تتكالب عليها المظالم تنجيه طلباً للطلاق الذي ربما لا تناله بسبب تسلط الزوج وحبه للانتقام منها لذنوبه لم ترتكبه :

" لا تفرحي بطلاق أنا أقسمت أني أتركك معلقة طول ما أنا حي" (١).

إلا أن الله عادل ولا يرضى بالظلم فبعد الامتحان يكون الأجر جنة أو ناراً ليقي موت الزوج هو الخلاص الوحيد من هذه المحنة التي تجسم على كاهل الزوجة ليصير متنفساً لها وخلصاً مما تعانيه :

" وبدأت صفحة جديدة من كتاب حياتي وعدت لعملي بالمستشفى ونشاطي بالصحيفة وأخذت حياتنا تعود مسارها الطبيعي" (٢).

في هذه الرواية (السكر المر - عام ١٩٨٣م) تمثل المرأة المغلوبة على أمرها من زوجها ، ومع أنها في بيتها إلا أنها تعد مسجونة تحت قيود الزوجية التي فرضت عليها ، ففارس زوجها أقسم أن لا يطلق أسرها ... وباتت تتأشده الطلاق . إلا ان القدر كان أرحم فقد مات زوجها إثر حادث حركة لتتخلص من عبوديته لها بالموت لتبدأ صفحة جديدة من حياتها التي خنقها .

١- عصام خوقير: السكر المر، نادي جدة الأدبي ، ط١ ، ١٩٨٣م ، ص ٩٧.

٢- عصام خوقير: السكر المر ، ص ١٠١.

المقهى :

يمثل المقهى بوصفه مكاناً من الأمكنة التي نتردد إليها ونقطة رابطة بين أمكنة العيش وأمكنة العمل وأمكنة الترفيه ، وهو المكان الذي يحوى كل تلك الأمكنة ، كما يعمل على ربط الأفراد وإخراجهم من ملل الحياة ودوامتها ، الشيء الذي يجعله عنصراً فاعلاً في لغة الخطاب الروائي في بعض الأوقات والأزمان ، من حيث أنه مكان جمالي مطروق في الرواية العربية .

" وزيادة على ذلك ، فإن المقهى من حيث هو مكان جمالي ، يعد علامة من علامات الانفتاح الاجتماعي ، والثقافي . فنلاحظ أن المقاهي انتشرت في أماكن مختلفة من العالم العربي ... وبعضها تقوم مقام النادي الأدبي ، والمسرح أيضاً كذلك .." (١) كلها مظاهر للانفتاح الاجتماعي والثقافي والفني الذي ساهمت المقاهي في تحقيقه بأي شكل من الأشكال .

رواد المقاهي يتوافدون إليها باكراً للمسامرة الصباحية ويهجرونها لأعمالهم فيقل زوارها في النهار لبدأ تزايدهم في العصر وحتى أواخر الليل ، كما أن جوها يتقلب وحاجة الإنسان لها ففي الصيف تكون متنفساً من الجو الخانق داخل الغرف والشقق ، كما أنها في الشتاء تكون دافئة تحتفظ بحرارتها بسبب الأدخنة المتصاعدة من محارقها وأنفاس مرتاديه ، فهي تستمد قيمتها من الناس .

"ولا شك في أن وجود المقهى في الشارع العربي قد أعطى هذا الشارع بعداً جمالياً جديداً فقد أتاح المقهى للروائي والفنان أن يتأمل الشارع جيداً ويدرك ما يدور فيه . وبكل بساطة كان المقهى هو كرسي التأمل للشارع . ولعل هذا الارتباط العضوي بين الشارع والمقهى في الرواية العربية قد أفاد كثيراً في إثراء جماليات كل منها ، على حد سواء . (٢) هناك شوارع في الرواية العربية ، برزت جمالياتها دون مساعدة من المقهى ، وهناك شوارع أبرزت جمالياتها من خلال رؤيتها من على كرسي المقهى .

اهتم الروائي السعودي كغيره من الروائيين بجمالية المكان / المقهى وأولاه عناية خاصة لما يعنيه لهم من معانٍ ادخرتها ثقافتهم . ففي روايات عبد الرحمن منيف خاصة أرض

١- شاعر النابلسي : جماليات المكان في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م ، ص ١٥٤/١٩٥ .

٢- المصدر نفسه ، ص ٦٥/٦٦ .

السواد تتجلى جماليات المكان المقهى قهوة (الشط) في كثير من مقاطعها. قد نستطيع القول إن الأمكنة الأكثر حضوراً على المستوي الرسمي والسياسي الداخلي والخارجي في أرض السواد هي ثلاثة ، (قهوة الشط) و (السراي) و(الباليوز)^(١). وتعد قهوة الشط هي المتنفس السياسي الوحيد لأهلها فهم لا يعرفون مكاناً يمكن أن يمنحهم الحياة الحقيقية غيرها :

" إذا ماكو قهوة الشط ، لازم نسوي قهوة شط ، أو واحدة مثلها.. شلون نعرف شنو صاير بالدنيا إذا ما الناس سدت حلوها ؟ إذا صمت من فوق ومن جوا؟ شلون نعرف الضحك من البكاء ، الجد من الهزل"^(٢).

كما تحتفل روايات عبده خال بهذا المكان أيضاً ففي روايته(مدن تأكل العشب – عام

١٩٩٨م) تجده يقول:

" في المقهى تتطاير الكلمات ، والقفشات وأدخنة الشيش ، وشيء ما يفوح من هناك له طعم الحلم. حكايات مبتورة ، وأغان ركيكة ، ومزاح ثقيل . لعب ، وسعال ونظرات عشق نام وعشق تيبس في الذاكرة . أشكال وألوان من البشر يتقاربون في مقاعدهم ويتعارفون ويشعلون الليل بكلام عابر، وضحكات عذاب . ألفت كل شيء هنا ، وغدوت جزءاً من المكان ألفت خصام المعلم وطرده لي ، وإعادتي للعمل بجاهات وتوصيات ممن يعرفه وممن له حظوة من زبائن المقهى. وتآلفت مع تلك الصيحات الغاضبة والمازحة والطالبة والسائلة . تآلفت مع كل شيء حتى تلك النبزة التي أطلقها عليّ آدم التكروني والتي كنت أتذمر منها واسعى جاهداً للتخلص منها . أصبحت أمثل شخصية أخرى أعيش بها ولها نمطها وعاداتها التي تآلف معها زبائن المقهى ، كنت أسير بالمقهى صائحاً : وعندك واحد بوري .. فتخلق لدى رواد المقهى شيئاً من السخرية أو تكون باعناً للضحك ، ونسي الناس نبذتي القديمة وأصبحوا ينساوني ب(البوري)^(٣).

إلا أن هناك ، وعلى الطرف الآخر، من يرى في الجلوس على المقاهي نوعاً من الخطأ الاجتماعي ففيه ، أصحاب السوابق ، ومدمنو المخدرات ، والكحول ، والعاطلين عن العمل كما أن الجلوس في المقهى تبديد للوقت وضياح له .

١- صالح إبراهيم : القضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٣١.

٢- عبد الرحمن منيف : أرض السواد ، الجزء الأول ، ص ٢٩٣.

٣- عبده خال: مدن تأكل العشب ، ص ١٨٥/١٨٦.

القصر :

القصر هو الدار الواسعة التي تحوي داخلها الثراء الفاحش والطبقة الارستقراطية التي تحوى أعلى الكنوز وأثمنها ، فهو يتميز بالأشجار العالية والحدائق اليناعة ، والمقاعد المرصعة بقطع الزمرد والفضة ، ومخادعه عليها مراتب من ريش النعام وتهف على شرفاتها الستائر المخملية التي تتخللها أسلاك رفيعة من الذهب والفضة ، لذلك يصبح حلم كل إنسان أن يمتلك واحدا ، أو تصغر الأمانى ليصبح مجرد العمل فيه نوعاً من المتعة ، كما أن القصر عادةً يكون خارج المدينة وبعيداً عن ضوضائها لينعم ساكنوه بالراحة والمتعة وحتى يتسنى لهم اللهو والمرح في إقامة الحفلات الصاخبة :

" بدت له أنوار القصر ومعالم الفرح تشع من بعيد وسط الظلام فقد كان القصر يبعد عن المدينة قليلاً وليست حوله مبان كثيرة.. فبدأ كمشعلة من ضياء أو كوكب في الفضاء"^(١).
فالروائي ، ولأنه يتحدث عن هموم ، تجده لا يتعرض للقصر/ المكان إلا نادراً ولأن غالبية الشخصيات من الطبقة الوسطى نجدهم يرفضون القصر مكاناً للعيش ليعود إلى الغرف الصغيرة والشقق :

" لقد استطاعت في البداية أن تشده إلى قصرها الذي تعيش فيه خارج مدينة لندن فعاش شهراً واحداً عاد بعده إلى شقته التي اختارها لتكون مكانه المفضل في إجازته خارج الكلية"^(٢).

لذا سنحاول في المقاربة القادمة من خوض غمار السرد ، والذي سيتناول مفهوم السرد لكونه استراتيجية فنية تتبدى في العمل الروائي ، وما يتعلق بالشخصية الساردة_ الراوي _ ودوره في التعبير ، وسنقف على أبعاد السرد من حيث وضعية السارد وعلاقة اللغة بالمكان من حيث اختلاف الألسن عندما على النص ودلالاتي المكانين الجغرافي والنفسي وعلاقتهمما باللغة الساردة . متمنين من الله أن يوفقنا في ذلك .

١- عبد الله سعيد الزهراني : ليلة عرس نادبة ، نادي الطائف الأدبي ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ٦٨ .
٢- غالب حمزة أبو الفرج : وجوه بلا مكياج ، ص ٨.

الفصل الثالث :

- السرد
- وضعية السارد
- اللغة في تنوع المكان
- مفهوم السرد

السرد :

كثر في الآونة الأخيرة الحديث عن السرد والسرديات ولاسيما في الدراسات النقدية الحديثة ، لما لهذا الجانب من أهمية كبيرة في دراسة النص الإبداعي قديمه وحديثه . غير أن السرد العربي قديم قدم الإنسان العربي ، إذ تعتبر أول النصوص التي وصلتنا عن أجدادنا العرب تدل على ذلك ، فقد مارس الإنسان العربي عملية السرد أو (الحكي) بأشكال وصور متعددة ، شأنه شأن أي إنسان آخر، وقد آل لنا هذا التراث الذي يؤكد براعة العرب في هذا . إلا أن السرد بمفهومه الحالي : المصطلح ، أو التسمية ، لفظ نوظفه ليكون مفهوماً شاملاً يستوعب غيره من المفاهيم ويكسبها دلالات عميقة في ضوء السياق الذي تولد فيه المفهوم الجديد ، لم تكن نستعمله في كل ما كنا نشغل به ونبحث فيه ، إذ كان يزرح تحت مسميات مختلفة تتصل به بوجه أو بأخر ، كوحدة الموضوع ، والأسلوب ، والسراقات والاقتراس ، والأخذ.. وغيرها من المفاهيم التي يمكن أن يتضمنها ذلك المفهوم الجديد - السرد - ويعطيها أبعاداً وأفاقاً جديدة تبعاً للسياق الذي تشكل في نطاقه . وهو نتاج كل التطور الحاصل في كل اللسانيات والعلوم الأدبية الإنسانية ، فقد جاء مفهوم السرد الروائي ليحدد ظاهرة نصية ويبرزها في وعي النقد ، لاسيما النقد الروائي لاتساع فضائه على غيره من الفضاءات الأخرى ، ولتعدد الأصوات فيه ، الشيء الذي يمكن الروائي من أن يدخل في نصه مجموعة من اللغات المتاحة وإيرادها بجميع مستوياتها في مختلف عمله.

ويعد مفهوم السرد واحداً من القضايا والظواهر التي بدأت تستأثر باهتمام كثير من الباحثين والدارسين العرب لاسيما المنقذين السعوديين إذ يعد من الموضوعات التي تعنى بجمالية القص الروائي كما يعد أحد مقومات النهوض بفن روائي مميز .

ويعني في اللغة العربية ، التتابع ، والمضي قدماً على سيرة واحدة ، إما في مصطلح النقد الأدبي ، فيعني الطريقة التي يختارها الروائي أو القاص أو غيره ليقدم بها الحديث إلى المتلقي ، وهو النسيج الكلامي .

و"هو نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية"^(١) . ويرى محمد صالح الشنطي أن السرد "يعني القص بكافة أشكاله ، والسرد له معنيان خاص وعام أما المعنى الخاص فيتمثل في الإفضاء بتوالي الحدث عبر سياق متصل متطور محدد بالزمان والمكان في وحدات

١- عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط٦ ، ١٩٧٦م ، ص ١٨٧ .

لغوية إخبارية دون حوار ، فالحوار لا يدخل في إطار السرد بالمعنى الخاص . أما المعنى العام فيتمثل في أسلوب نقل الحدث وتطوره والإفشاء به عبر أشكال متعددة وخطابات متباينة من قص متزمن بزمن إلى مشهد وصفي يتجاور في الخطاب السردي بالمعنى الخاص مع الوصف وما يعرف في أدبيات القصة بالتلخيص والثغرة وما إلى ذلك" (١). والذي يعتمد في هذا المنحى أن السرد يوازي الشعرية التي تدل على جماع الخصائص الجمالية في الأدب بعامة.

" السرد هو طريقة الراوي في الحكى أي تقديم الحكاية والحكاية هي أولا سلسلة من الأحداث" (٢) . ويرى حسن النعمي : " أن الرواية جنس أدبي يتقاطع مع العديد من المعارف الإنسانية من تاريخ ، واجتماع ، وفلكلور ، واقتصاد وسياسة ، وثقافات دينية ، من خلال هذه المعطيات المعرفية ، أما على جانبها الفني فهي تملك خصوصية قولية مستمدة من ذاتها بوصفها بنية سردية هدفها الحكى الذي يحيل العملية الإبداعية إلى مسألة متعة فنية لا تثبت أن تكون مسألة فكرية في مراحلها الأخرى " (٣).

ونرى أن السرد هو التعبير الملموس لوعينا بالزمن ، فإذا كان النص الروائي في بنيته مجموعة من الأحداث المرتبة زمنياً على نحو خاص ، فإن العملية السردية تتجاوز الترتيب الزمني الموضوعي الذي يقع فيه الحدث ، من حيث هو حيز ، أو إطار.

ويعد المشهد السردى السعودى من أكثر المشاهد جدلاً ولاسيما حينما يتم الحديث عن طلائع السرد في الأدب العربى الحديث ، والمتابع للحركة السردية بالمملكة يجد تلك العناية التي أولتها النشاطات الروائية ، والنقدية ، والقصصية له على حد سواء ، ويلحظ أن الالتفات إلى السرد بالمملكة بدأ في السنوات الأخيرة (التسعينيات) في ازدياد لافت للنظر، حتى إنه يمكن القول: إن النتائج التي يحصل عليها الدارس من وراء دراسته تتطلب من دارسى فن الرواية بالمملكة العربية خاصة أن يعيدوا النظر في كثير من الدراسات السابقة التي عالجت فن الرواية ولاسيما أنها لم تهتم بالمفهوم الذي يعنى بمصطلح السرد ، ولم يولوه عناية منفردة كغيره مثل المكان والزمان والبطل بل جعلوه تابعاً لبعض تلك الدراسات ومكملاً لموضوعاتها موضوع النظر

١- محمد صالح الشنطي : نقد الفنون السردية وطرق تحليلها وتدريسها ، سلسلة اللغة العربية قضاياها ومشكلاتها ، ... ، مرجع سابق ، ص ٢٧١ .
٢- صالح إبراهيم : الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .
٣- حسن النعمي : رجع البصر ، مرجع سابق ، ص ٧٣/٧٢ .

غير أن المتابع لما أنتجته الحركة النقدية الروائية بالمملكة يجد النقاد يلتفتون إلى ظاهرة السرد التفاتاً بارزاً ، ترجمة ، وتاليفاً ، وتطبيقاً ، ومن خلال اطلاعنا المحدود على ذلك نستطيع الإشارة إلى بعض ما تراكم من بحوث في هذا الميدان ، فقد أصدر حسن حجاب الحازمي كتابه (البطل) ، الذي أفرد فيه مساحة شاسعة لمفهوم السرد وعلاقته بالبطل الراوي ، وأصدر الدكتور حسن النعمي كتابه (رجع البصر) الذي تناول فيه بالدراسة أعمال عبد العزيز مشري ورجاء عالم وغيرهما متوقفاً عند مآثيره هذه الروايات من قضايا السرد.

وقد عني الروائي السعودي بتحديد زمن السرد لديه عبر وسائل متعددة بعضها يقوم على الرصد ، والمتابعة التقريرية ، فتحدده تحديداً دقيقاً كما في أكثر روايات عبده خال وعبده العزيز مشري خصوصاً (الوسمية — عام ١٩٨٥م) و (الغيوم ومنابت الشجر — عام ١٩٩٠م) ، إذ لجأ إلى تقنية التقسيم الهندسي للبناء الروائي معددين كل قسم بإشارات زمانية ، ومكانية أو هما معا .

وضعية السارد :

تتعدد الأصوات السردية في عملية القص الروائي لتشكل فضاءاً من فضاءات السرد منها .

١/القص من خلال ضمير الأنا :

والذي يتميز القص فيه من حيث إن السارد هنا ينتمي إلى شخصيات الرواية فهو يشاهد أحداثها ويراقبها ويتم الصياغة هنا من خلال إدراج ، أنا تقص وليس بالضرورة أن تطابق أنا السارد أو أنا الكاتب أو أنا القاص وتوضح الأمثلة التالية طريقة السرد أو القص ومدى حضور الأنا فيها .

تدور أحداث رواية (زوجتي وأنا — عام ١٩٨١م) حول الشخصيتين الأساسيتين ناصر وزوجه شادية ، وهي رواية اجتماعية ذات أهداف إصلاحية إذ إنها تنتقد على لسان بطلها كثيراً من العادات الاجتماعية المتعفنة والأمراض السائدة في حقبة من الزمن في مجتمعه . وقد استعمل المؤلف ضمير المتكلم لسرد الأحداث وإدارة الحوار فيها :

" اليوم هو يوم آخر من أيام الاسترخاء الاقتصادي ، فلم يعد عندي ما أعمله في المكتب ، وقد مضى على هذا الوضع بضعة أيام ونحن - أعني نفسي وأمثالي ممن يطلق عليهم رجال الأعمال - نعاني حكاية هذا الاسترخاء...." (١).

" وأنا...أنا بمفردي في هذا البيت الذي يطل على النورية.. بيتاً من حجر قديم زخرفته الأيام وأمالنا بعضاً من أجزائه" (٢) .

الصوت الذي تفرد في رواية طريق الحرير لرجاء محمد عالم والذي تسمعه في جميع المقاطع السردية التي تكون المقاربة طريق الحرير.

" عدنا من حيث بدأنا حفاة عراة" (٣).

"حين اجتمعنا للميت كان مطهراً ومكتوبة جبهته بكلمات الحياة ، ولم نتمكن لفرط حيويته من دفنه" (٤).

" وظللنا نترقب وتترقب (هيا) ظهور المآقي الخضر بيننا" (٥).

" استطيع القول أنني نصف نار... أنا التي دخلت بنصفي الإنسي للنص مفتونة بقاقلته" (٦).

" جاء الحلم ، كأحلامي كلها ، غاية في الوضوح . وتفاصيله ، كالتفصيل في

أحلامي كلها" (٧).

"منذ موت أبي ، كان منصف جزءاً من حياتي اليومية" (٨).

" قلت للإحصائي الشهير: " جنت لأسالك عن قريب لي" (٩).

١- عصام خوقير: زوجتي وأنا، تهامة للنشر ، جدة ، ط١ ، ١٩٨٣م ، ص ١٨.

٢- غالب حمزة أبو الفرج : سنوات معه ، ص ٤/٣.

٣- رجاء عالم : طريق الحرير ، ص ٩.

٤- المصدر نفسه : ص ٢٠.

٥- المصدر نفسه : ص ٨٧.

٦- المصدر نفسه : ص ١٨٠.

٧- غازي عبد الرحمن القصبي : رجل جاء وذهب ، ص ١٣.

٨- المصدر نفسه : ص ٣٠.

٩- المصدر نفسه : ص ٧١.

٢/طريق القصة المحايد :

حيث يتراجع السارد هنا من تدخلاته في القصة إذ تجده يختفي وراء شخصه الروائية ليترك المجال لمخيلة القارئ كي ترى مكان جريان الحدث ، وهي طريقة ترمي إلى الموضوعية والابتعاد عن الذاتية :

" ضفیرتا سکينة من خيوط المسک ناصعة البياض من الجذر لنهاية الأطراف ، قالوا إن ذاك البياض هو حرقتها من خطف الموت لخمسة من أولادها"^(١).

"إنتابه إحساس صادق بأنه لم يعد ذلك الثري الذي يحرص على أن يقيم بينه وبين الآخرين حواجز من الوهم والكبرياء.. برزت له الحقيقة فأسقطت رداء الزيف.. وأستيقظ إنسان آخر .. اكتشف أن للناس البسطاء مشاعر دافئة صادقة وأنهم أكثر التصاقاً في الحزن والفرح وتساقطت القشور اللامعة التي كانت ترصع حياته"^(٢).

لعل تجربة عبده خال الروائية حافلة بكل تلك المعاني ففي روايته (الطين - عام ٢٠٠٢م) التي جاء السرد فيها موضوعياً وذات تقنية عالية حيث أبرز الكاتب فكرة جديدة على سرديات المملكة وهي فكرة الوعي واللاوعي لدى الإنسان . ففي رواية (الطين) السارد هو الراوي وهو البطل والمسرود إليه فالطبيب الذي يأتيه مريضه ليشكو له حالته التي هي ذات حالة الطبيب . تعددت فضاءات السرد فتارة يجيء الكلام بضمير المتكلم وتارة أخرى بضمير الغائب ، وقد توالى المستويات السردية وتداخلت بحيث يعمل السارد أثناء حكيه على الاختزال والتركيز ، وأوضح هنا أن للعنوان (الطين) طبيعة الإحالة والمرجعية فخلف العنوان ، هناك منظومة من المرجعيات تعلن عن مقاصد القاص ومراميه الإيديولوجية ، كما أن العنوان من حيث هو نص مواز يساهم في تشكيل الدلالة وتفكيك الدوال الرمزية إيضاح الخارج قصد إضاءة الداخل . الشيء نفسه الذي نجده في روايته (مدن تأكل العشب - عام ١٩٩٨م) كما أن الروائي عبد خال انتهج النفس الملحمي في جل كتاباته الروائية وأنه كاتب السرد الأكثر حضوراً وتميزاً وإنتاجاً بالمملكة إذ تميز بلغة سردية متماسكة ورؤى عميقة ومقدرة هائلة على حوض مجاهل الكتابة وفك طلاسمها ليخرج منها درأً نقلد به أرفف مكتبتنا .

١- رجاء عالم : خاتم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ٢٥ .

٢- عبد الله سعيد جمعان الزهراني : ليلة عرس نادية ، ص ٣٢ .

" حقاً أنا المريض اعترف بهذا من غير أن يعتريني الخجل أو الركض بعيداً لتجويف الأرض وإلقاء أسراري في القاع وطمرها والعودة أواباً لنفي هذه التهمة"^(١) .
وفي فصل كامل تحت عنوان (مستخلصات لكلمات أُرعبتني) تجده يتراجع عن تدخلاته في القص ويختفي بعيداً خلف شخصية المريض ولا يعرف القارئ عن حضوره شيئاً لكي ترى بنفسك مكان جريان الحدث أو أنه يراقب العالم المصور من خلال عين شخصية روائية لا تقص بل تجري الأحداث من خلال وعيها :

" عندما تقول أن الرجل يبحث عن نصفه الآخر لينصهر به ويصبح واحداً ، هذا يعني اتصال النصف بالنصف من أجل الفناء كي لا يصل للواحد ، فبلوغ الواحد بلوغ درجة الكمال. لذلك نظل مشطورين ، لا نجتمع هذا ما أفسر به عدم التقائي بمن أحب"^(٢) . جملة قالها مريضى ..

وكانه نفذ إلى أعماق الطبيب ليخبره عما يجيش بخاطره كذلك حين يقول المريض :
" شخصيتان ساندتان في الحياة متسلط وخاضع هذه الثنائية هي التي قامت عليها الحياة ، وهي التي أحدثت هذا الكم المهول من أحداث التاريخ ولكي تهرب المجتمعات من أن توصم بإحدى هاتين الصفتين ، فباتها تخلق ثنائيات أخرى لكي تستجير بواحدة دون الأخرى حيث يتأزم الوضع . بالنسبة إلي ، أشعر بانني أخبىء رجلاً متسلطاً بينما شخصيتي التي أسير بها بين الناس تبدو متسامحة حد السذاجة . فمن منها الحي ومن منها الميت"^(٣) .

١- عبده خال : الطين ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٧ .

٢- المصدر نفسه : ص ٢٩٣ .

٣- المصدر نفسه : ص ٣٠٥ .

٣/القص عن طريق الأنت :

وهو الضمير الثاني الذي يمكن أن نسميه المخاطب أو أسلوب الأنا/أنت وهو ما يجعل القارئ يظن أنه البطل حتى أن الأحداث التي تدور في الرواية يرى وكأنه المحرك لها عبر دخوله في متن القصة :

" أنت لا تحب البحر في صخب وزحامهم الناس .. دائماً تأتي إليه في منتصف الأسبوع وحدك في الغالب.. تغطس فيه ، وتناجيه ، وتقذف بحصوات صغيرة من شاطئه إلى أبعاده وترقب أمواجه وكل ما حوله من صمت تفرغ شحنة نفسك ، وتتنفس هواء جديداً نقياً وتقف راجعاً للناس ببطء " (١) .

" يوماً وراء يوم وجسداً وراء وراء لحناً وراء لحن تزداد خاتم يقينا : الموسيقى هي عجينة أجسادنا ، تناسقها وتشوهاتنا ، كما أن أجسادنا بالمقابل ، حين تصفو ويكتمل بهاؤها تصير آلة لطلوع هذه الموسيقى الكونية ، كما أننا يتم بطلوع الأغنية المضمره فينا " (٢) .

تخاطب رجاء عالم على لسان الراوية البطلة (خاتم - عام ٢٠٠١م) القارئ الذي يحس بالموسيقى بأنها شيء مهم في حياة الناس والذين يتفاعلون بنغماتها الجميلة عليها تسليهم فهم أيضاً أحرف موسيقية في منظومة الكون الرائع الجمال .

١- عبد الله عبد الرحمن الجفري : جزء من حلم ، دار تهامة ، جدة ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ٥٤ .

٢- رجاء عالم : خاتم ، ص ١٨٨ .

٤/ القصة الاسترجاعي FLASH BACK :

في هذا النوع من القصة تحضر الذاكرة كمصدر للقول ولكنه في العمق صوت مسموع مشحون بدلالات متعددة تقترن بالذات الساردة لإضاءتها وذلك عبر معمولات دعيتها لذلك ودفعتها ، فالحنين للبيت الذي ولدنا فيه هو استحضار ما لذلك البيت من ذكريات ودلالات رسخت فينا ، وقد يأتي الحنين بدافع تشابه مكانين أو حدثين أو شخصين لهما الصفات نفسها التي تحث على التذكار . كما أن السارد يسرد قصته في الحاضر الذي تعتريه الثقوب والشقوق ليتمكن للماضي من التسرب والحضور عبره ، فالسرد هنا بضمير الأناة الماضية الغارقة في الغموض والأزمان البعيدة كزمن العزاب والسجن وزمن الفرح واللحظة السعيدة .

وقد يعتمد بعض الكتاب إلى الاتكاء على الماضي مستدعياً له وقد يقفز من خلال الحلم إلى أزمنة قادمة نادراً ، لتحفل القصة بأزمان متعددة وقد يأتي الارتداد إلى الوراء واضحا ومباشرةً كأن يمهد له بمثل قوله :

" إن حضارة أربعين قرناً تطل عليكم من وراء هذه الأهرامات"^(١).

وإذا كان الارتداد إلى الوراء يمنح الزمن الماضي فرصة أن يفرض هيمنته على زمن القصة بما يحمله من دلالات نفسية فإن الحلم يفتح لزمن القصة نافذة على المستقبل :

" ها هو (فارس) بعد رحلة (سارة) - في السنين ، وبعد سفرها واستغراقها في الغياب - مازال أمام البحر الذي يقذف الأصداف والوشل على بعد خطوات منه.. يجلس وحده تكويه جمرة اشتياقه لها ، يشاهد أضواء الميناء الصفراء على البعد ، وشلالات بيضاء من النافورة التي زرعت كفنار في عرض البحر. حزن يعانق ويلتقي . وذراع يلوح بالوداع ، لعل في التلوحة وعداً أخضر"^(٢).

من المقاربات السابقة نجد أن الروائي السعودي قد لجأ أيضاً لعملية الاسترداد باعتبارها من وسائل الكشف عن العوالم الداخلية للشخصية الصانعة للأحداث أو الحدث المفرد :

١- عصام خوقير : السنيورة ، تهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، ط١ ، ١٩٨١م ، ص ٥٩ .

٢- عبد الله عبد الرحمن الجفري : أيام معها ، ص ١٠٧ .

" أيام العمر تمضي وهو في مكانه يتذكر أحداث الأمس القريب والبعيد معا " (١).
" قد تكون أيام الشباب قد ولت لكنها علمته مع مضيها أشياء كثيرة يحس بها تداخل
نفسه رغم إحساساته بالراحة " (٢).

" بين خبايا الصدور تستقر ذكريات الماضي كعرائس بحر.. كزهور برية .. ارتبط
شذاها بعبير الأرض السمراء التي استندت على وسائد حريرية ، جاءت هكذا فجأة كما هي
الحياة ، وهو يرغب أن تظل أسرار الماضي حبيسة ، فلا تطل على الناس كعناقيد العنب التي
أحبها وهي تتدلى من بين ثنايا الضياء " (٣).

هذه المناداة تعني أن القاص أو الراوي يتحدث عن نقطه في الزمن الفائت أى يسترجع بعض
ذكريات ويعيدها لتكون معه في حاضره .

١- غالب حمزة أبو الفرج : وجوه بلا مكياج ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م ، ص ٦٠.

٢- المصدر نفسه : ص ٦١.

٣- غالب حمزة أبو الفرج : قلوب ملت الترحال ، ص ١٠٤.

٥/ الحوار والمونولوج :

"يشكل الحوار في الرواية دوراً مهماً ، إذ ينهض الروائي من خلاله بالكشف عن خبايا شخصه ، وإظهار ما بينهم من صراعات مختلفة ، وهو من أبرز الفوارق بين الرواية والمسرحية ، وهو عنصر أساسي في البناء العضوي لها " (١).

كما يساعد الحوار الجيد في تذوق الرواية بما ينهض به من دور الرابط بين الشخص ربطاً يعمق أثر تفاعلها ببعض . فالحوار يمثل جزءاً مهماً من بناء الهرم الروائي ، ذلك البناء الذي يتخذ من السرد أساساً له . ففي الأدب السعودي هناك بعض الكتاب الذين جاءت بعض أعمالهم في صورة حوارية مثل رواية (أبو صلاح البرمائي - عام ٢٠٠٠م) (٢) ، ورواية (العصفورية - عام ١٩٩٦م) (٣).

"تقوم بنية الحكى في العصفورية وأبو صلاح البرمائي على تولد الحكى والاستطراد . وهو ما يجعل هذه البنية في وضع تناصي مع ألف ليلة وليلة . فليس هناك من حدث متصل في هذين العملين ، بل هناك إطار عام يسمح للعملين بالتمدد بطريقة توحى بالعفوية والتراكمية التلقائية . غير أن العملين محكومان بأسلوب سردي محدد يظهر ظهوراً لافتاً في مسألة استتطاق الراوي أو دفعه للحديث . وهو مَلَمَحٌ تجده في النص التراثي السردى عموماً" (٤)

يروى الكاتب أحداث الصراع المباشرة ، وأشكالها السياسية الفجة ، مبيناً فيها رؤاه الفكرية ، وكيف بلغت نظر الناس إلى التباين في وجهات نظر العامة عبر عملية بوح فردي واسع كما تعتمد على عناصر الرؤيا ، ذلك أن بطولتها فردية تقاسمتها شخصيتها أبي صلاح البرمائي والصحفي توفيق .

"وهذه الطريقة هي ذاتها التي تجدها في أبو صلاح البرمائي ، بل أكثر وضوحاً من العصفورية ، إذ يقوم العمل في الأساس على محاورات صحفية بين الصحفي توفيق وأبو صلاح" (٥)

١- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص ٢٧٠ .
٢- غازي عبد الرحمن القصيبي : أبو صلاح البرمائي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٠م .
٣- غازي عبد الرحمن القصيبي : العصفورية ، دار الساقي للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٦م .
٤- حسن النعمي : رجع البصر ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ .
٥- المصدر نفسه : ص ١٤٣ .

" توفيق : هل يمكن أن نبدأ بالسؤال التقليدي؟

- أبو سلاخ : ما هو السؤال التقليدي؟

- توفيق : في أي سنة ولدت؟

- أبو سلاخ : لا ، لا يمكن! هذا السؤال يدل على جهل وعلى نقصان

في اللباقة . والجهل يأتي من وجهين . الأول ، أنه في منطقتنا

من العالم لم تكن توجد شهادات ولا حتى روزنامة ...

- توفيق : روزنامة؟!

- أبو سلاخ : تقويم يا عزيزي ، تقويم . كلمة أصلها فارسي

مثل شاهنامه . الظاهر أن نامه معناها كتاب بالفارسية.^(١)

يعتبر الحوار من علامات تحول اللغة والخطاب في تركيب الحكاية حيث يعتبر إحدى فضاءات الصوت الروائي وجماليته السردية ، بهذا فالأسلوب الحواري في كتابة الرواية يعد من أجمل آليات الكتابة السردية لما يضيفه من ثراء وقوة في العمل الروائي الشيء الذي يسمح بتعميق مظهرات الوعي عبر مقاطعه الحوارية.

وبهذا القصد يصبح الحوار إحدى إمكانيات إنتاج خطاب ثقافي يمتلك أسساً اجتماعية وجمالية تعبر عن الرأي والموقف والوعي وهو أداة تفسيرية مزدوجة الوظيفة، فالمقاربات المحلية التي حفل بها المشهد السعودي حاولت استثمار مفهوم الحوار بمفهوم تحليلي بحت، إذ لا يحاول فيه الروائي بمحاكاة خطاب المسرح فقط بل يعتبر مركزاً لاستقطاب كافة جماليات النص الشيء الذي تميزت به الأعمال الحوارية مثل أبو سلاخ البرمائي وغيرها. وهي مناهج الحوارية التي تمتد لتصل ما بين الخطاب النقدي والخطاب الإبداعي على اختلاف منحى كل منهما وطبيعتها ، لكن هذا التمايز بين الخطابين لا يعني أن ليس بينهما علاقات اتصال حوارية باعتبارهم جزءاً من المنظومة الثقافية العامة في المجتمع.

" والمونولوج الداخلي هو أحد مقومات الرواية المعاصرة حيث يصحب الروائي القارئ إلى الأفكار المشوشة والعواطف المدفونة في أعماقه التي تسبح فيها الشخصية في كل

١- غازي عبد الرحمن القصيبي: أبو سلاخ البرمائي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٢م
ص ١٧.

الأزمة ، الماضي - الحاضر - المستقبل " (١) . وهي تقنية سردية مهمة لأنها تفتح للمتلقى أفقا يطل منها على لا شعور الشخصية الأساسية في الرواية ، أو الشخصية المحورية في الرواية . وقد درج الروائي السعودي على كتابة هذه المناجاة الذاتية بوسائل تكشفها :

" أغمض فارس عينيه ، ثم أطرق مليا.. وهمس فيما بينه وبين نفسه .. رحماك يا إلهي ! أفي كل يوم امتحان عسير؟ هل أقول لها كل شيء وأصارحها قبل أن تفجع في؟ وتعرف الخبر من غيري محرقا مشوها.. ولماذا لا أبوح لها بسري ؟ أليست هي أقرب القوم إلى نفسي وقلبي؟ وهذا الشعور الغريب الذي أحس به نحوها.. وهذه النظرات الصائبات التي توجهها إليّ وأحس بوقعها في كبدي !! من يدري ماذا يخبؤه لنا القدر؟ وإلى أي ستؤدي بنا النهاية." (٢)

يريد الراوي أن يطلعك أولا على زمن ذلك الحب هو في زمن كان فيه نديما هاربا لقتله تركيا حاول اغتصاب شقيقته ، فهرب خوفا من قتله ولجا إلى ديار محبوبته سلمى التي بادلته الحب والعاطفة ، فحز في نفسه أبلغها قصته ولكن كان خائفا من تبدل مشاعرهما تجاهه ، فاختلجت في نفسه الحياة والحب والأمل مقابل الموت والكراهية اللتين يسمع وقعهما كلما هدأت به الحياة . هي الحياة مليئة بالتفاؤل والأحلام التي يتحصن بها كل فتى وفتاة ليجعلوا من أمانهم ديدنا يتلمسون خطاه في دروب الحياة التي لا تعطي من يريد ما يأمله . ولتبدى ما في نفسها وترسم فتى أحلامها لعله يكون الطارق :

" فتى أحلامي هو الذي يصل إليّ بعرقه وكفاحه . لا الذي يدفع فيّ الثمن من مال أبيه.. وهمست كمن يحدث نفسه : ترى. هل هو الشخص المعنى بفتى الأحلام الذي تريده أن يصل إليها بعرقه وكفاحه؟ (٣).

١- السيد محمد ديب : فن الرواية في المملكة العربية السعودية ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص٢٧٥.

٢- فزاد عبد الحميد عنقاوي : تراب ودماء ، ص١١٧.

٣- طاهر عوض سلام : عواطف محترقة ، ص١٤١.

اللغة في تنوع المكان :

اللغة هي الكيمياء الأولية بالنسبة للفنون المكتوبة عامة ، فهي الوحيدة القادرة على استجلاء ما يعتل في صدر الإنسان أو الفنان ، فاللغة تظهره وتعطيه حضوره وتوصله للآخرين. غير أنها في الرواية تؤدي دوراً أساسياً مهماً لأنها هي التي تبرز العناصر الأخرى وتبينها وتستجلي الأحداث وتصور البيئة وترسم ملامح الشخصيات وتوضح سماتها وتستطلق أفكار الروائي والشخصيات . أما لغة القص الروائي فهي عادة تكون في شكل مقاطع سردية تتناول الأحداث والزمن و المكان والشخصيات بتفاصيلها ومتعلقاتها ، ومقاطع حوارية تتكفل بالكشف عن أفكار الشخصيات ومستوياتهم الفكرية . ومن المعلوم ، ضرورة ، أن لغة السرد هي لغة خالية من التشويق والتعقير والتكلف والإسراف في المعاني من سجع وبديع ومحسنات بلاغية وغيرها ، مما يذهب بوضاءة الكتابة وسلامتها . كما يرى النقاد سلامة اللغة السردية من الأخطاء النحوية والإملائية ومراعاة شروط كتابة النص العربي ، بدءاً من علامات ترقيم ، الشيء الذي يحدد كثيراً الدلالات المعنوية للنص ، ويبين جلياً وضوح فكرة الكاتب للقارئ ، كما أن تجاهلها أو استعمالها الخاطئ قد يند المعاني المرادة لتتماهي في غياهب النص . من هنا بدأت لغة الرواية في إطارها السوسولوجي كمنحى دلالي تشترطه اللغة الإبداعية ، ولأن السرد الروائي واسع النطاق تجوس به عدة فضاءات سردية ، تبلور قابليته لتنوع اللغة المحكية ، فيه بحسب مناطقها ومدلولها البياني ، والتي توظف توظيفاً يعبر عن دلالاتها النفسية لدى الأشخاص الذين يستبطنون عبر الكاتب المعاني النفسية والثقافية والاجتماعية في المشاهد النصية ، وانفعالاتهم التي تمثل مرحلة وعي لا تنجزها إلا لغة الوصف في مستويات للاستبدال والانتقال والتحول في فضاء كل شخصية ليكون مجال التداخي متنوعاً ومتعدد في مواقع الرواية السردية :

" في الظهران الأشجار الباسقة والبيوت الأنيقة والنساء الأمريكيات ، وهن يقدن السيارات الفارهة ، ويرتدين الثورت الضيق ، ولا يزال يذكر تعليقات (موضي) وهي تنظر إلى الأميركانيات بحسرة قاتلة : إيه هذول هن الحريم مهوب إحنا ، كش علينا"^(١).

ترتبط لغة الحكاية الروائية بالناس الذين يحكونها لذلك تأتي صيغها بحسب انتماءاتهم الاجتماعية وتنوع أماكنهم ، فكما تنوعت الفضاءات المكانية تنوعت اللغة المتداولة في النص الواحد . فساكن الصحراء يستعملون لغة معينة تسمى اللغة البدوية وهي لغة البدو .

١- تركي الحمد : لعمامة ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٥٣ .

غير أن هناك من برع في إغناء أعماله بعددية كبيرة من اللغات المتداولة على نطاق النص الواحد فعبد الرحمن منيف ، وفي جميع مقارباته تقريبا ، يستعمل عدة لغات لاسيما في الخماسية وأرض السواد ، الشيء الذي أبرز جليا اهتمامه بالبيئة المكانية ، واللغات المحكية فيها حتى إن القارئ يولع بالولوج لذلك العالم ، فنجده يقول :

" يا جماعة الخير، البارحة ..لا قبل يومين أو ثلاثة أيام.. أنا شفته ، سولفنا وقال لي : لا تخافي ، الخوش يرجع . وأنتم تعرفون. أنا صار لي سنتين اتني الخوش وأنشد ، وأنتم أنشدكم عن أبو ثويني ولا أحد يجيب ولا أحد يسمع" (١) .

وهي من المقاطع السردية التي تتمازج فيها اللغة الفصحى بالدارجة ، يعتقد بعض الروائيين أن اللغة الدارجة لا تمكن الرواية من العالمية ، كما لم ينس منيف من أن يدخل بعض اللغات من خارج البيئة والممزوجة بغيرها في :

" - مسلمان.. مسلمان .. علي إقبال . ابتسموا له ابتسامة مرتبكة خائفة ولم يتكلموا . لم يفهموا شيئا مما قاله . نظر بعضهم إلى بعض بتساؤل. ماذا تعني كلمات الرجل وماذا يريد منهم؟ هل سألهم وينتظر إجابة من نوع ما؟ تطلع إليهم وهز رأسه ثم براحة يده كلها دق على صدره مرة وقال :الحمد لله رب العالمين . الرهمان الرهيم . وكانت ابتسامته هذه المرة كبيرة" (٢) .

فالإنسان الذي لا يتكلم العربية تجده يطوع صوته بما يناسبه ليعبر عما يريد بلغة غير لغته .

" الأمريكان مالهم رب . الأمريكان مالهم صاحب ، ما يعرفون إلا: شغل.. شغل ، عرب كسلان ، عرب كذاب ، عرب ما يفهم" (٣) .

" وأنا، يا أبو غزوان ، من ناحيتي عملت اللازم : ما تركت في لحيته شعرة بيضة واحدة ، موبس هيبك وصبغت له شعره صبغة .. العفاريت لا تلاحظها ولا تعرفها" (٤) .

١- عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : النتيه ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط١٠ ، ص ١١٧ .
٢- المصدر نفسه : ص ٣١٠ .
٣- المصدر نفسه : ص ٤٠٠ .
٤- عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : الأخدود ، ص ٥٧٠ .

وعبد الرحمن منيف بلغة خطابه الروائي بيّن دور المكان في صياغة لغة الإنسان^(١).

والذي أراه أن المشهد الروائي بالمملكة حفل باهتمام روائيه بلغتهم السرديّة وتنعوعها البيئي وذلك لما للمملكة العربيّة السعوديّة من تباين وتنوع في اللغة المحكيّة في أرضها من حيث أنها السمة الأولى ، ومن حيث إنها قبلة القصد لما تحفل به من مكانة دينية إسلامية متمثلة في كونها مهبط الوحي ، الحاوية لأهم الآثار الإسلاميّة ، الشيء الذي يجعلها قبلة القصد لكل الناس من جميع الأجناس ، ولما لها من مكانة تجارية متمثلة في أنها من أكبر الدول المصدرة للبتروول عربياً وهو السبب الذي جعلها تستوعب أعداداً هائلة من الأجانب الذين وفدوا إليها لذلك الغرض . كما لا ننسى مساحتها الشاسعة مما جعلها متاخمة لعدة دول عربيّة أخرى . كل هذه الأسباب مهدت لإغناء بيئاتها عامة لتحظى بلغة محكية متنوعة ، أثرت تبعاً لذلك في أدبها المكتوب والمقروء .

١- مرشد أحمد : المكان والمنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٢٤ .

مفهوم السرد :

لا شك في أن للمكان دوراً أساسياً ومهماً في عملية السرد الروائي ، والذي يأتي على لسان الراوي الذي يقدم في سرده عدة تكنيكات تتقاطع وتتشابك وتتجاور وتتعالق ، ولكن لا يجمعها السرد القصصي باعتبارها شريط ذكريات في جعبة الراوي الذي يقوم بتوصيف شكل الأماكن وتحديد ملامحها كما في قرية عبده خال :

" استيقظت القرية من نومها راضية ، ونصبت عند مفترق الوادي . الفلاحون تركوا حقولهم تستقبل الشمس وحيدة ، والرعاة تركوا بهائمهم ترزح في مطارحها تمضغ القصب اليابس وتنعم بيوم من الرغاء الممتد ، وبانعات الملوخيا واللبن لم يخرجن كعادتهن الصباحية وهن مستجلبات الزبائن بأصواتهن اللزجة المنغمة . العسكريان الوحيدان الموجودان في القرية خرجا يحملان بندقيتين متصلبتين ووجهاهما تتنافر منهما حيرة حادة ، تحاول أقدامهم إخفاءها بالركض المتواصل . في هذا الجو الرامض تيقنت أشياء طفيفة تلتزم بالصمت فعلى غير عادة توقفت الغبرة في هذا الصباح المدهش ، وذاك السوق العتيق البالي التحف بالصمت الصباحي وظل غارقاً بروائح الموز والشفلخ والسمن ، وإن استطاعت هذه الروائح أن تتسلل عبر ممراته الملتوية منتشرة بتمدد أطرافها في اتجاه الوادي.. شيء ما يشي بأن الكل يسابق الفلوس صوب مفترق الوادي ، حتى أن الحاسي قذف برشاء الدلو جانباً وانطلق راضياً غير مكثرث بصرخات من تبقى على البئر طلباً للماء"^(١).

من خلال هذا السرد التفصيلي والوصف الدقيق لتلك القرية وما أصابها من تغيير وما يجوس فيها من أنماط حياة وأنشطة عديدة مرتبطة بها كبيع الملوخيا ، واللبن ، والسمن ، والموز والشفلخ ، فهكذا تتنوع الأمكنة وتتعدد الفضاءات السردية لتصور كل شيء في صور خلاصة ، غير أنها وبقدر ما تحيل على أمكنة حقيقية ، يتم استعمالها ، وتوصيفها ، بطريقة متخيلة ، مرتبطة بأفكار الشخص فيها ، وهو الشيء الذي يستدعي الذاكرة لتجس وأحياناً بالحلم والاستيهام.

أولت الروايات الصادرة حديثاً بالمملكة المكان وعلاقاته المتجذرة بالزمان والشخص وجعلوا يصفونه وصفاً دقيقاً وأفردوا له مساحات واسعة داخل المنظومة الروائية ، حيث يبقى الراوي وبهيمنته على الفضاء السردية بإفراد اللغة السردية على المكان الذي يريد توصيله للقارئ

١- عبده خال : الطين ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٤٢.

فجده يرسم المكان الجغرافي ويحدد أبعاده الفيزيائية، ويخطه هندسياً ، ويصف تضاريسه وطبيعته ، وفق التسمية الجغرافية ، والجيولوجية (سهل بحر صحراء مدينة...قرية....) الخ.

كما أن إيرادهم لأماكن واقعية وبأسمائها الحقيقية على خارطة الواقع قاصدين بذلك غايات فنية وفكرية لما يحويه ذلك المكان من جملة من المفاهيم والأفكار والتواريخ :

" واستمرت السيارة في المسير، حتى قلت البيوت لدرجة الندرة ، واختفت أعمدة الإنارة من الشوارع ، وأزداد عواء الكلاب الشاردة ، ثم عرجت السيارة على طريق ترابي مظلم وضيق وسارت فيه متأرجحة لبعض الوقت حتى لاح في الأفق مبنى ضخيم غارق في الظلام ، إلا من بعض أنوار خافتة ، تطل على استحياء ، من بعض جهاته ويحيط به سور عال جداً ، رصع بمصابيح كهربائية متفرقة أنوارها إلى الخارج . يختفي الجزء الأكبر من المبنى ، ما لبثت السيارة أن توقفت أمام سيارة فولاذية ضخمة فأطلق سائقها البوق بسرعة ثم كبس النور الأمامي كبسات سريعة لم يلبث أن جاء صوت صرير حاد ومزعج ، معلناً فتح البوابة^(١).

في هذه الصور المتدفقة من مخيلة السارد نتلمس المكان السجن ، وسوره العالي والظلام الذي يحفه دلالة على الظلم والعذاب والتخويف ، وتلك البوابة الفولاذية الضخمة التي تحاول أن تصد كل من يحاول الهرب متعاونة مع سورها العالي لتتمعه داخل السجن الذي يحيل بين كثير من نزلاه وبين الحرية والأمل في الخلاص . فالسارد وصف السجن وصفاً جغرافياً ووصف الطريق المؤدي إليه بالضيق والالتواء ، الطرق الترابية ، السور العالي ، البوابة الضخمة ، الأسلاك الشائكة ، الأنوار الضاربة للخارج الباحثة عن المزيد من طالبي الحرية والوطنية والمنادون بحقوقهم ، وتدير ظهرها عن كل أصحاب الحق داخله .

إضافة للمكان الجغرافي نجد المكان النفسي وهو من أكثر الأماكن وضوحاً في الفنون وهو المكان الذي يثير مشاعر الإنسان ويحفز طاقاته النفسية لتضفي عليه جملة من السمات والأبعاد الجمالية الإضافية التي تخرجه من كتلته الجرمية إلى أفاق رحبة يطوعها الروائي الذي يشكلها على مستويين ، ظاهري صريح وباطني قائم فإذا وزعنا وحدات السرد على المستويين خرجنا بنصين متداخلين منفصلين وتراكم النصين في نسق واحد يثير لدي المتلقي سلسلة من الأسئلة التي تتجاوز مظهرية المكان إلى مخبريته . فتتلاشى معالمه من مقدمة الاهتمام ليغوص

١- تركي الحمد : الكرايب ، دار الساقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١١١ .

النظر بعدها في أغوار المكان مستكشفاً تجاور المتعة والوحشة ، الحصانة والخراب ، الحياة والموت . وكان هذا التناظر لا يستقيم معه ذلك التجاور إلا لعلل لا تظهرها للعيان أبداً ولو ظهرت جليلة لشدّ تناقضها العابرين . كما أن تراكب النصين الصريح / والغامض لا شك سيولدان نصاً ثالثاً هو نتاج التمازج الكلي بين عناصر التكوين السردي ليأتي وصف المكان مادياً ومن الخارج كان لم ترّة الشخصية من الداخل ، وتتفاعل به ، أو تتفاعل معه ، ولذلك فإنه يعطينا صورة فوتوغرافية تحتاج إلى تأويل لإدراك غاية الوصف ، ولا يجادل أحد في أهمية الوصف الموضوعي للمكان فهو يساعد على :

" تكوين فكرة عن وضع العينة البشرية التي تأمله وتجد الفتها فيه ولكن يقف عند هذا الحد ولا يتجاوزه للتعبير عن الإرادة الإنسانية التي تشغل المكان وتعطيه امتلاءه الدلالي"^(١).
" تقلب يمينا وشمالاً وضع الوسادة على عينيه ورأسه .. قذف بها بعيداً .. نهض مسرعاً.. سار في طرقات القصر أمامه غرفة (نادية) .. إقترب منه رويداً رويداً... وضع يده على المقبض.. أداره.. إنفرج الباب.. داهمته موجة من عيبرها دمعت عيناه"^(٢)

١- حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ٤٤ .
٢- عبد الله سعيد جمعان الزهراني : ليلة عرس نادية ، ص ٧١ / ٧٢ .

الخاتمة :

لقد شمل تطور مفهوم المكان الواقعي فيزيائياً ورياضياً وهندسياً وفلسفياً المكان الروائي ، و ما يوجد به المكان في الرواية يتجاوز احتضانه الأحداث وتأطيرها ، فقد استطاع المكان كغيره من العناصر الأخرى كالشخصيات ، والزمان ، الحلول في دينامية العمل السردي وبما فيه من الثراء الجمالي والفكري والقدرة على كسر رتابة المقاطع السردية . وكانت رحلتنا ، التي نحسبها نقطة انطلاقاً للكشف عن شعرية المكان في الرواية السعودية المعاصرة ، التي تأملنا خلالها العديد من الروايات التي اتخذت من الفضاء السعودي مسرحاً فنياً لها ، وصار من الممكن استخلاص صورة متكاملة لهذا المشهد ، بأبعاده الفنية .

فعلی الرغم من حجم الصعوبات التي واجهتنا في إيجاد أدوات التحليل التي تعد عاملاً مهماً في العملية التفكيرية والتحليلية للعمل الأدبي ، إلا أننا لم نلهث جرياً وراء التعريفات الكثيرة التي تخلفها أمهات كتب النقد الأدبي ، التي ما انفكت تحاول أن تجد ما يعبر عن مفهوم الجمال في الرواية ، بل ركزنا جهدنا على إبراز ما وضح منها ، ولم نحاول تطبيق أسس نظرية معينة مقارنة بإحدى الروايات العالمية أو العربية محل تقدير النقاد ، وذلك ليس تقصيراً ، ولكن لنبرز إلى أي حد نجح الروائي السعودي في تحقيق ذاته ، لأن في تميزه ما يحدد مستقبل الرواية السعودية . وبعد هذه الرحلة في الرواية السعودية وجدنا أنفسنا أمام حقيقة مفادها أن الإنسان السعودي كاتباً وناقداً ارتبط ببيئته المحلية ، وأنه ما انفك يحاول أن يجد معاريفاً له تحمل خصائصه وسماته الخاصة به ، وأعتقد أنه استطاع أن يحقق نجاحاً ملحوظاً في غالبية الروايات الصادرة مقارنة بالرواية العالمية والعربية ، نجدهما تجذرتا عميقاً في ذاكرته ، واستحوذتا على مساحات واسعة من تفكيره حتى غدتا شاغله لأفكاره ، ذلك الارتباط الذي يوجب علينا المزيد من الممارسات النقدية ، حتى نوظر مكاننا بين الدول الرائدة في هذا المجال ، فدراسة المكان تحفز للمزيد من المقاربات والتجارب ، بوعي ومهارة مبدعة تعبر عن العبقرية في بناء المكان الذي يحتويها. غير أن غاية ما يطمح إليه هذا البحث أن يستطیع الانضمام إلى ما سواه في تحقيق نقلة منشودة تنهض بهذا الفن .

ثبت المصادر والمراجع :

أولاً: الكتب العربية والكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية :

- القرآن الكريم .
- إبراهيم ، صالح (٢٠٠٣م) ، الفضاء ولغة السرد في روايات عبدالرحمن منيف ، ط١ ، بيروت ، المركز الثقافي العربي .
- إبراهيم ، علي (٢٠٠٢م) ، الزمان والمكان في روايات غائب طعمه فرمان ، ط١ ، سوريا ، الأهالي للطباعة والنشر .
- أحمد ، مرشد (١٩٩٨م) ، المكان والمنظور الفني في روايات عبدالرحمن منيف ، ط١ ، سوريا ، دار القلم العربي .
- إسماعيل ، عز الدين (١٩٧٦م) ، الأدب وفنونه ، ط٦ ، مصر ، دار الفكر العربي .
- أمين ، بكري شيخ (١٩٧٢م) ، الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، ط١ ، بيروت ، دار الملايين .
- باشلار ، غاستون (٢٠٠٠م) ، جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، طه ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- بحراوي ، حسن (١٩٩٠م) ، بنية الشكل الروائي ، ط١ ، بيروت ، المركز الثقافي العربي .
- التهانوي ، محمد علي (١٩٦٩م) ، كشف اصطلاحات الفنون ، ج٢ ، تحقيق لطفي عبدالبدیع ، مصر ، الهيئة العامة للتأليف .
- حسين ، محمد سعد (١٩٨٦م) ، الأدب الحديث ، ط١ ، الرياض ، مطابع الفرزدق .

- خليل ، إبراهيم (٢٠٠١م) ، جبرا إبراهيم جبرا ، دراسات أدبية ، ط ١ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- ديب ، سيد محمد (١٩٩٥م) ، فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور ، ط ٢ ، مصر ، المكتبة الأزهرية .
- ديفيز ، ب . س (١٩٨٩م) ، المكان والزمان في العالم الكوني الحديث ، ترجمة أدهم السماني ، ط ١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة .
- زايد ، عبدالصمد (٢٠٠٣م) ، المكان في الرواية العربية — الصورة والدلالة — ط ١ ، تونس ، دار محمد علي للنشر .
- ديفيز ، ب س (١٩٩٨م) ، المفهوم الحديث للمكان والزمان ، ترجمة السيد عطا ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- الشنطي ، محمد صالح (٢٠٠٣م) ، فن الرواية في الأدب العربي السعودي ، ط ٢ ، حائل ، دار الأندلس للنشر والتوزيع .
- الشنطي ، محمد صالح (٢٠٠١م) ، نقد الفنون السرديات وطرق تحليلها وتدريسها ، ط ١ ، حائل ، دار الأندلس للنشر والتوزيع .
- صالح ، صلاح (١٩٩٧م) ، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر ، ط ١ ، القاهرة دار شرقيات للنشر والتوزيع .
- عبود ، حنا (٢٠٠٢م) ، تاريخ الرواية ، ط ١ ، سوريا ، اتحاد الكتاب العرب .
- عزام ، محمد (١٩٩٦م) ، فضاء النص الروائي ، ط ١ ، سوريا ، اللاذقية ، دار الحوار للنشر والتوزيع .
- العدوانى ، معجب (٢٠٠٤م) ، تشكيل المكان وظلال العتبات ، ط ١ ، جدة ، النادي الأدبي الثقافي .

- الفصيل ، سمر روجي ، (٢٠٠٣ م) ، الرواية العربية — البناء والرؤيا — دمشق ، اتحاد الكتاب العرب .
- القحطاني ، سلطان سعد (١٩٩٨ م) ، الرواية في المملكة العربية السعودية — نشأتها وتطورها — ط ١ ، الرياض ، مطبعة الصفحات الذهبية .
- المحادين ، عبدالحميد (٢٠٠١ م) ، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، ط ١ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- مسلم ، طاهر عبده (٢٠٠١ م) ، عبقرية الصورة والمكان ، ط ١ ، عمان ، دار الشروق للنشر والتوزيع .
- النابلسي ، شاکر (١٩٩٥ م) ، جماليات المكان في الرواية العربية ، ط ١ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- النابلسي ، شاکر ، (١٩٩٤ م) ، مدار الصحراء ، ط ١ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- النساج ، سيد حامد (١٩٨٠ م) ، بانوراما الرواية الحديثة ، بيروت ، المركز الثقافي العربي .
- النعمي ، حسن محمد (٢٠٠٤ م) ، رجوع البصر — قراءات في الرواية السعودية — ، ط ١ جدة ، النادي الأدبي الثقافي .
- وادي ، طه (١٩٩٤ م) ، دراسات في نقد الرواية ، ط ٣ ، مصر ، مطبعة دار المعارف .
- يوسف ، إبراهيم عطا (٢٠٠١ م) ، بحث في القصة ودورها في التربية الحديثة ، ط ١ حائل ، كلية المعلمين ، دار الأندلس للنشر والتوزيع .
- نجم ، محمد يوسف (١٩٩٦ م) ، فن القصة ، بيروت ، طبعة دار الثقافة .

الدوريات :

- حسين ، خالد حسين (أكتوبر ٢٠٠٠م) ، شعرية المكان في الرواية الجديدة ، كتاب الرياض ، (العدد ٨٣) .
- السرغيني ، محمد ، (١٩٩١م) ، مقارنة النص الشعري بالمنهج المقولاتي ، مجلة علامات ، المجلد الثامن ، (الجزء ٣١) .
- سلامه ، فتحي ، (١٩٨٠م) ، هوية الرواية العربية ، مجلة الفيصل ، (العدد ٣٧) السنة الرابعة .
- شوابكة ، محمد ، (١٩٩١م) ، دلالات المكان في مدن الملح ، مجلة أبحاث اليرموك ، المجلد التاسع ، (العدد ٢) .
- النساج ، سيد حامد ، (١٩٨٠م) ، الرواية العربية كفن من الفنون ، مجلة الفيصل (العدد ٣٨) ، السنة الرابعة .

ثانياً: الروايات

- أبو الفرج ، غالب حمزه ، (١٩٨٥م) ، وجوه بلا مكياج ، ط ١ ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة
- أبو الفرج ، غالب حمزه ، (١٩٨٥م) ، قلوب ملت الترحال ، ط ١ ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة
- أبو الفرج ، غالب حمزه ، (١٩٨٠م) ، سنوات معه ، ط ١ ، جدة ، المجموعة الإعلامية للنشر والتوزيع والدراسات الإعلامية .
- أبو عامرية ، هادي علي ، (١٩٨٩م) ، الأشباح ، ط ١ ، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

for being a self-existent spoken narration and one of the other artistic elements forming the narrative text. A complete chapter was dedicated for writing about the space components of the Saudi scenery, considered as a feature distinguishing it from other scenarios.

Discussion also touched upon the open place, the desert of which the Saudi novelist was fascinated and carefully contemplated until it became the trial that distinguishes novelistic works published in Saudi Arabia since its outset until today. The sea is also considered the space by which the splendor of the novel grows. The spirit of the Saudi is saturated with the sea in like manner as the sponge is filled with water, in a way that if you squeeze out his soul you will have the sea with its pearls, shells and sharks. When a novel talks about the sea I speaks about human spirit, changes of his mood, affection, betrayal and giving. It is the controversy of life and death, forbiddance and unlimited giving.

Before the boundless desert and the wideness of the sea comes the city where man who tries to attain all what he wants by all means. The city is house for treachery, oppression and manipulating in the feelings of villagers, who are taken as a sacrifice to please the city in which freedom is usurped. That space is abundant with most works of Abdel Rahman Mufti, Turki AL- Hamad and Ghalib Abu AL Farj. Discussion also covered the closed private place like the place where amenities enjoyed by persons in power and rules who trip off the simple man his freedom, the café considered as the forum, which gathers all kinds of people, including workers, employees and politicians and the house which is the place of childhood and lads from cradle, room and home that embodies all such features deeply rooted in everyone's mind.

Finally, we found that the Saudi environment is rich environment that helps its creative human in using his senses to from which he can derive art and creativity. The Saudi place is worth Arab interest in general and Saudi interest in particular.